الفصل الأول

الدين فى حياة الأفراد والجماعات

١ التنوع سنة الحياة .

٢ الدين والتدين .

٣ الدين للحياة .

٤ ثقافة الأمل فى ضوء تعاليم الإسلام .

٥ أفلا يتدبرون القرآن ؟

٦ ردة حضارية !

٧ التأثير الدينى على التشريع فى مصر .

٨ مكانة القدس فى حياة المسلمين .

٩ الأمة الإسلامية فى مفترق الطرق .

١ التنوع سنة الحياة (*)

التنوع سنة الحياة . هذه حقيقة ماثلة أمام الجميع لا تخطئها عين ولاينكرها عقل . فأينما يوجه المرء بصره أو يُجيل فكره يصادفه هذا التنوع فى كل شيء فى هذا الكون . والأمثلة على ذلك لا تحصى ولا تعد . فالبشر شعوب متنوعة وأمم مختلفة الألوان والأعراق والعادات والأديان . والتنوع واضح فى تقلبات الجو بين صيف وخريف وشتاء وربيع ، والليل والنهار يتعاقبان ، والخير يوجد بجانب الشر ، والنور بجانب الظلمة ، والماء العذب بجانب الماء الملح ، كما يشتمل الكون على تنوع بين أرض وسماء وكواكب ومجرات وبحار وأنهار وجبال وسهول ووديان . ومن الكائنات الحية آلاف مؤلفة مختلفة الأنواع والألوان والأشكال . وكل ذلك يشكل منظومة متكاملة فى غاية الإتقان والإبداع ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل : ٨٨] .

وهذا التنوع يعده القرآن الكريم من المعجزات الإلهية . ألا ترى الأرض تنبت لنا زروعاً مختلفة الأشكال والألوان والثمار مع أنها جميعاً تُسقى بماء واحد ؟ إنه لأمر مبهر يخلب الألباب والأبصار . وبهذا التنوع فى كل شيء أصبح للحياة معنى وقيمة ، فنحن أمام متحف حىّ يعرض علينا لوحاته الباهرة التى تملأ قلوبنا بالبهجة وعقولنا باليقين بعظمة الله وتنعش فينا الآمال وتقتل فى نفوسنا أسباب اليأس والإحباط .

---

* نُشِر فى صحيفة أخبار اليوم فى ٢٧ / ٦ / ٢٠٠٩.

فإذا انتقلنا من الكون الكبير بكل أطيافه وتنوعاته إلى الكون الصغير وهو الإنسان فإننا نجد التنوع أوضح ما يكون . فلا يوجد اثنان فى هذا الوجود يتفقان تماماً فى كل شيء ، سواء من الناحية الجسمية أو النفسية أو العقلية حتى لو كانا توأماً .. فلكل منهما شخصيته المستقلة وعواطفه وانفعالاته الخاصة وتفكيره المختلف . وقد أعطانا الله رمزاً مادياً لذلك يتمثل فى أنه لايوجد اثنان فى هذا الكون يتفقان فى بصمة إبهامهما .

وهذا التنوع بين البشر ـ فى حد ذاته ـ ليس أمراً سلبياً ، ومن هنا وجدنا القرآن الكريم يشير إلى الاختلاف القائم بين الأمم والشعوب ويجعل من ذلك منطلقاً للتعارف والتآلف والتعاون ، وليس منطلقاً للنزاع والشقاق كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا ﴾ [الحجرات : ١٣] . وهذه سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

ومن طبيعة الإنسان أنه لا يستطيع أن يعيش وحده ، فهو كائن اجتماعى يحتاج إلى الآخر بقدر احتياج الآخر إليه . فالآخر إذن ضرورى بالنسبة لنا وليس هو الجحيم ـكما كان يرى الفيلسوف الوجودى سارترـ وعلى الرغم من الاختلافات الظاهرة والخفية بين البشر فإن جوهر الإنسان واحد فى كل زمان ومكان ، بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو العقيدة . والسمة الجوهرية فى الإنسان أنه كائن مفكر ، وهذه صفة مشتركة بين كل البشر . ومن هنا عرف الفلاسفة القدماء الإنسان بأنه "حيوان ناطق" أى أنه كائن حى مفكر.

وإذا كان الناس متساوين فى الجوهر فليس هناك إذن فضل لإنسان على آخر إلا بما يقدمه من خير للناس وللمجتمع الذى يعيش فيه . والوعى بهذه الحقيقة من شأنه أن يشيع بين الناس روح الأخوة الإنسانية والاحترام المتبادل . وحقيقة الأمر أن احترامنا للآخر هو فى الوقت نفسه احترام لذواتنا . فالذى لا يحترم ذاته لا يحترم الآخرين .

وإذا كان ينبغى أن نحترم الآخر فإن هذا ينسحب بطبيعة الحال على احترام رأيه وفكره . واحترام الرأى الآخر لا يعنى بالضرورة القبول به ، فهذه مسألة أخرى . إن احترام الرأى الآخر يعنى احترام حق الآخر فى التعبير عما يجول بفكره . واختلاف وجهات النظر وتنوع الاجتهادات ليس أمراً سلبياً ، وإنما هو أمر إيجابى من شأنه أن يُثرى الحياة ويضيف إليها . والأمر السلبى هو التعصب للرأى والاعتقاد بأن هذا الرأى وحده هو الرأى الصائب وأن غيره خطأ على الإطلاق .

إن كل رأى بشرى لا يعدو أن يكون اجتهاداً من صاحبه ، فليست هناك قداسة أو حصانة إلا للنص الموحى به ، وما عدا ذلك يعد من قبيل الاجتهادات البشرية التى تخطيء وتصيب ، كما كان الإمام الشافعى يقول : **"رَأْيُنا صواب يحتمل الخطأ ورَأْىُ غيرنا خطأ يحتمل الصواب"** . وهنا نجد أن قيمة التسامح تمتزج بقيمة الاحترام .

ولكن الأمر المحزن أننا اليوم نفتقد كلاً من قيمة الاحترام والتسامح معاً فى كثير من جوانب حياتنا . فالكثيرون يستهينون بهما ولا يعيرونهما أى اهتمام . وإذا عبرتَ عن رأيك وكان مخالفاً لرأى الآخرين كان ذلك مدعاة

لتسفيه هذا الرأى ورفضه . ووصف صاحبه بكل نقيصة . فإذا كان الرأى يتصل بقضية دينية فهناك اتهامات جاهزة بالكفر والفسوق والزندقة والإلحاد ، وإذا كان يتصل بقضية سياسية فصاحب الرأى عميل للأعداء وصنيعة الاستعمار ، وإذا كان يتصل بقضية اجتماعية يمكن أن يُوجَّه لصاحبه الاتهام بإشاعة الفساد والانحلال فى المجتمع .

لقد عبَّر الشيخ محمد عبده منذ أكثر من قرن من الزمان عن روح التسامح التى تسع كل تنوع فى الآراء دون الخشية من أى اتهامات جاهزة بقوله : **" لو كان الرأى يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حُمِلَ على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر "** .

فالتسامح يعطى مساحة رحبة تسع الآخرين وتجعل الشخص لا يضيق ذرعاً بما يصدر عنهم من آراء تخالف ما يتبناه هو من أفكار ، وهذا يعنى احترام الرأى الآخر . وكما أعطى لنفسى الحق فى أن يكون لى رأيى الخاص ووجهة نظرى المستقلة فكذلك ينبغى أن أعطى الحق ذاته للآخر . فمن حقه أيضاً أن يكون له رأيه الخاص ووجهة نظره المستقلة ، بل ومن حقه أن يكون له معتقده المختلف .

ومن هنا لا يجوز لنا أن يضيق صدرنا بالآراء المخالفة لآرائنا ، ليس فقط فى مجال الأمور اليومية العادية ، بل حتى فى أمور الدين والفكر والسياسة . فلا يجوز لطرف من الأطراف أن يدعى لنفسه أنه وحده الذى يملك الحق المطلق وأن غيره يقف فى الطرف المقابل الذى يتساوى مع الباطل .

إن التنوع البشرى وما يترتب عليه من تنوع فكرى أمر واقع لا يمكن إنكاره ، وبدون هذا التنوع فى الكون وفى الإنسان لا يكون لهذا العالم الذى نعيش فيه طعم ولا لون ، وتبدو حياة الناس باهتة لا حراك فيها . أما التنوع فإنه يدفع الناس إلى التنافس الخلاق الذى يؤدى إلى تطوير المجتمعات وترقية الحياة وتفاعل الحضارات والثقافات والأديان وتبادل الأفكار والخبرات .

وبذلك يحقق الإنسان ذاته ويسهم فى تعمير هذا الكون مادياً ومعنوياً تحقيقاً للمهمة التى كلفه الله بها عند خلقه بقوله : ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ [هود : ٦١] . أى طلب منكم عمارتها وصنع الحضارة فيها .

٢ الدين والتدين (*)

عندما خلق الله الإنسان نفخ فيه من روحه . وهذه ميزة فريدة امتاز بها الإنسان وحده من بين جميع المخلوقات . وبمقتضى هذه النفخة الإلهية للإنسان أصبح لديه حياة روحية ، واستحق من أجلها أن تسجد له الملائكة. وهذا ما أخبر عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ** ﴾ [الحجر : ٢٩] .

من هنا فإننا إذا أردنا أن نفهم الإنسان فهماً متكاملاً فإنه لا يجوز لنا أن نغفل أى جانب من جوانب طبيعته ، وبصفة خاصة الجانب الروحى الذى جعله فى صلة مباشرة مع الله . وقد اعتاد الناس أن يصفوا بعض الأفراد الذين يعتقدون أنهم قريبون من الله لما يبدو عليهم من مظاهر التقوى والصلاح بأن فيهم "شيئاً لله " .

وحقيقة الأمر أن هذا الوصف ينطبق على جميع البشر ، فكل منهم يشترك فى هذه الصفة ، وكل منا فى داخله "شيء لله " بموجب النفخة الإلهية المشار إليها . ولكن بعض الناس يتجاهلها ولا يُعيرها أى اهتمام .

ومن أجل رعاية وتنمية هذه العلاقة بين الله والإنسان جاءت الأديان لتكشف للناس عن جوهرية هذه الصلة من ناحية ، ولتنميها وتتعهدها

---

* نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ٦/٩/٢٠٠٨م .

بالرعاية المتواصلة من ناحية أخرى . فالدين إذن ليس أمراً دخيلاً على الإنسان ، وإنما هو متفق تماماً مع فطرته التى فطره الله عليها . وهذا يفسر لنا سَعْى البشر منذ بدء الخليقة نحو البحث عن الدين .

وهناك حقيقة أجمع عليها مؤرخو الأديان هى : **" أنه ليست هناك جماعة إنسانية ، أو أمة كبيرة ، ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر فى مبدأ الإنسان ومصيره ، وفى تعليل ظواهر الكون وأحداثه ، ودون أن تتخذ لها فى هذه المسائل رأياً معيناً ، حقاً أو باطلاً ، يقيناً أو ظناً ، تصور به القوة التى تخضع لها هذه الظواهر فى نشأتها ، والمآل الذى تصير إليه الكائنات بعد تحولها "** [1] .

ومن ذلك يتضح أن الدين ـ أيًّا كانت الصورة التى ظهر بها هذا الدين ـ مركوز فى طبيعة الإنسان . والمتتبع لتاريخ الحضارات البشرية يتبين له أن الدين ـ مطلق دين ـ كان يمثل دائماً الركيزة الأساسية لكل الحضارات . وعندما نتأمل الحضارة المصرية القديمة ـ على سبيل المثال ـ يتضح لنا أن ما تركه لنا أسلافنا من آثار ـ صغرت أم كبرت ـ تمثل بشكل أو بآخر رموزاً دينية . وهكذا الشأن فى سائر الحضارات ، الأمر الذى يدل على أن الدين كان ولا يزال يمثل عمقاً عميقاً فى نفوس الأمم والشعوب على مدى التاريخ .

وقد أراد الخالق تقديم العون للمخلوقين للتعرف عليه ، وذلك من خلال الآيات والشواهد الماثلة أمامهم فى هذا الكون ، ومن خلال الآيات

١ـ راجع : الدين للدكتور محمد عبدالله دراز ، ص ٣٥ ، طبعة الأزهر ، ٢٠٠٨ .

الكامنة فى النفس الإنسانية أيضاً ، والتى تدل جميعها على وجود الله وعلى عظمته . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

ويركز الإسلام على أهمية دور العقل الإنسانى فى التعرف على وجود الله . فهذه الآيات المبثوثة فى الكون وفى النفس الإنسانية فى حاجة إلى عقل يفكر حتى يفهم أسرار الكون ويدرك جلال الخالق . وفى هذا الصدد يقول القرآن أيضاً : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

وفى تراثنا نقرأ أن أعرابياً بسيطاً سُئِل : كيف عرفت الله ؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، وأثر السير يدل على المسير . وهذه سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، أفلا تدل على اللطيف الخبير ؟ . وهذا يعنى أن هذا الأعرابى قد استخدم قانون السببية فى الاستدلال على وجود الله من خلال الآيات المبثوثة فى هذا الكون . ويدل ذلك أيضاً على أن العقل الواعى الفاهم المدرك لا يقف عند الأسباب الثانوية المبعثرة التى تصادفه فى عالم الطبيعة ، وإنما يتابع السير إلى ما وراءها . وعندما يمعن النظر فى سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها فإنه لا يجد بُداً من اللجوء إلى أحضان العناية الإلهية والتسليم بوجود الله الذى بيده مقاليد كل شيء .

وقد كنا ونحن طلاب فى المرحلة الثانوية نقرأ كتاباً بعنوان **"الله يتجلى فى عصر العلم "** من تأليف مجموعة من العلماء الغربيين فى مختلف

التخصصات العلمية يؤكدون فيه أن بحوثهم العلمية التى أجروها ، كلٌّ فى تخصصه ، قادتهم إلى اليقين بوجود الله خالق هذا الكون .

ومن شأن التأمل فى النفس الإنسانية أن يقود الإنسان أيضاً إلى التعرُّف على خالقها عن طريق الآيات الإنسانية الدالة على صنعه ـ كما سبق أن أشرنا ـ . وفى هذا الصدد يقول الفيلسوف المعروف ديكارت : **"إن الله حين خلقنى غرس فىَّ هذه الفكرة (فكرة وجود الله) لكى تكون علامة للصانع على صنعته "** [1]. وفى المعنى ذاته يقول الإمام الغزالى : **"وصورة آدم مكتوبة بخط الله . ولولا هذه الرحمة لعجز آدم عن معرفة ربه ، إذ لا يعرف ربه إلا من عرف نفسه "** [2].

وقد أكد الشيخ محمد عبده أن الإيمان بالله ـ الذى هو أصل الاعتقاد والذى ينبنى عليه كل دين صحيح ـ : **" لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلى والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى ، فلا يدهشك بخارق العادة . ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية "** [3]. والطبيعة الإنسانية الصافية التى لم تعكر صفوها الشوائب المادية لا تجد صعوبة فى التعرف على وجود الله ، الذى هو أقرب إلينا من حبل الوريد ، كما يقول القرآن الكريم .

١ـ التأملات لديكارت ، ترجمة : د. عثمان أمين ، ص ٢٠٢ ، القاهرة ، ١٩٥١.

٢ـ مشكاة الأنوار للغزالى ، ص ٧١ ، القاهرة ، ١٩٦٤.

٣ـ الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ، ص ٤٨ ، دار المنار بمصر ، ١٣٧٣هـ .

وعندما يتجاهل المرء الجانب الروحى فى حياته ويلجأ إلى إنكار هذه الصلة الحميمة بين الله والإنسان فإنه عادة ما يبحث لنفسه عن معبود آخر يدين له بالطاعة والولاء . وقد يكون هذا المعبود مالاً أو جاهاً أو سلطاناً أو ما شاكل ذلك من أمور أرضية يعوض بها الإنسان ما فقده من فطرة صافية بشيء مصنوع ، يصنعه بنفسه كما كان عُبَّاد الأوثان يصنعون آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله .

إن الله وحده إذن هو الجدير بالعبادة . ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة مشيراً إلى أن الهدف من خلق الإنسان هو العبادة لله وحده ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وإذا كانت العبادة من جانب الإنسان لله هى الهدف الأساسى من خلق البشر فإن السؤال الذى يفرض نفسه بإلحاح هو : **ما المقصود بالعبادة ؟** هل هى مجرد أداء الشعائر الدينية المعروفة ؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل يعنى هذا انقطاع الإنسان وتفرغه التام للعبادة من صلاة وصيام وزكاة وحج . وبذلك يحقق الإنسان ذاته ويحظى برضا الله ؟

إن هذا الفهم الضيق لمفهوم العبادة ليس هو المقصود فى حقيقة الأمر. والقرآن الكريم نفسه يبين لنا أن هذا فهم جزئى للعبادة ، ولا يعبر بحال من الأحوال عن المقصود بالعبادة فى الآية المشار إليها . فالله سبحانه وتعالى قد جعل الإنسان خليفة له فى الأرض ، وحدد له فى الوقت نفسه مهمة حضارية فى هذا الكون فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ﴾ [هود : ٦١] .

وهذا يعنى أن الله قد كلف الإنسان بإعمار الأرض وصنع الحضارة فيها، ويعنى ذلك بدوره ضرورة تمهيد الأرض وتحويلها إلى حال يجعلها صالحة للعيش فيها والانتفاع بخيراتها . وحتى يستطيع الإنسان القيام بهذه المهمة الحضارية فى هذا الكون سلّحه الله بالعلم الذى جعله الإسلام فريضة دينية .

ولكن عمارة الأرض على هذا النحو ليست هى الحضارة بإطلاق ، وإنما هى إحدى جوانب الحضارة . ويمكن أن يطلق عليها مصطلح **"الحضارة الشيئية"** أو المادية . أما الجانب الآخر الذى تكتمل به الحضارة ـ أو عمارة الأرض بالتعبير القرآنى ـ فإنه يشمل كل القيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية . وبمعنى آخر : الحضارة الحقيقية هى التى تضع الإنسان فى قمة أهدافها دون أن تغفل أى جانب من جوانب طبيعته مادية كانت أم روحية . فالإنسان إذا كان هو الذى يصنع الحضارة ، فإنه فى الوقت نفسه يُعَد الهدف الأسمى لكل حضارة .

ومن ذلك يتضح أن مفهوم العبادة يتسع ليشمل كل عمل نافع يقوم به الإنسان فى هذه الحياة ، دينياً كان هذا العمل أو دنيوياً ، طالما قصد به المرء وجه الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم . وفى هذا الإطار تعد مجالس العلم عبادة . فالملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ـ ، كما جاء فى الحديث الشريف .

كما يعد البحث العلمى الهادف إلى ترقية الحياة والنهوض بالبشر عبادة ، ويدخل فى ذلك أيضاً كل عمل من الأعمال التى يظن البعض أنها بعيدة عن مفهوم العبادة مثل عمل الفلاح فى حقله والصانع فى مصنعه والمعلم فى مدرسته ، وهكذا الشأن فى سائر الأعمال التى تقدم الخير للناس امتثالاً للإرادة الإلهية .

إن العبادة إذن ليست منحصرة فى الشعائر الدينية ، كما أنه لا صلة لها ببعض المظاهر الشكلية التى اعتاد الناس خطأ جَعْلها معبرة عن الدين مثل إطالة اللحية وتقصير الثياب للرجال واستخدام النقاب للمرأة والدروشة الفارغة وغير ذلك من أمور مظهرية ، يدل التمسك بها على قصور فى الفهم وتخلف فى الفكر . فالله لا ينظر إلى صورنا وأشكالنا ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا ـ كما جاء فى الحديث الشريف .

إن التدين الحقيقى لا يأبه كثيراً بالشكليات ، ولا يعوّل على المظهريات ، والتقوى محلها الصدر ، كما ورد فى الحديث الشريف : **[التقوى ها هنا]** [1] . وأشار إلى صدره ، وقد نظر عمر بن الخطاب إلى رجل مُظهر للنسك متماوت فضربه بدرَّته قائلاً : **"لا تُمت علينا ديننا أماتك الله"** [2] .

كما أن التدين الحقيقى ينعكس أثره واضحاً بشكل إيجابى وعملى فى علاقة الإنسان بربه وبنفسه وببقية المخلوقات من بشر وكائنات حية وغير حية ، وهذه أمور ليست فى حاجة إلى مظهريات كاذبة أو شكليات خادعة .

والخلاصة : أن الدين مفهوم جامع للعقيدة والشريعة والأخلاق والحضارة . وهذا العنصر الأخير هو ـ للأسف الشديد ـ الفريضة الغائبة فى دنيا المسلمين . وقد آن الأوان لنصحح فهمنا للدين والعبادة ، وبالتالى لنصحح صِلاتنا بالله وبكل الكائنات فى هذا الكون الفسيح .

١ـ أخرجه مسلم فى صحيحه (حديث رقم ٤٦٥٠) وأحمد فى مسنده (٨٧٠٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

٢ـ الباعث على إنكار البدع لأبى شامة المقدسى ج١ ، ص٨٢.

٣ الدين للحياة (*)

التدين فى جوهره سر بين العبد وربه ، لا يطلع عليه إلا الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . وهناك كثير من الناس متدينون يحسبهم الجاهل المهتم بالمظاهر الشكلية بعيدين عن الدين ، لأنهم يعيشون حياتهم على نحو عادى فى ملبسهم ومطعمهم ومسكنهم ، ولكنهم لايؤذون أحداً وملتزمون بواجباتهم الدينية دون إعلان .

ولكن هناك فريقاً من الناس من الجاهلين بحقيقة الدين يعتبرون أنفسهم متدينين لتمسكهم الظاهر بأمور شكلية لا صلة لها بجوهر الدين ، وحرصهم الشديد على أن يُضفوا على أنفسهم جواً مظهرياً يوحى بالتدين. فاللحية تطول إلى أقصى حد والثياب قصيرة والمسبحة لا تفارق أيديهم والحوقلة والبسملة تنساب من أفواههم بمناسبة ودون مناسبة ، والتشدد المفرط فى صغائر الأمور الدينية هوايتهم المفضلة .

وهذا هو مبلغهم من التدين الذى هو أمر باطنى لا صلة له بهذه المظاهر التى قد تكون خادعة فى أحوال كثيرة . ونموذج شركات توظيف الأموال التى اتخذت من المظاهر الدينية ستاراً لأعمالها الاحتيالية للاستيلاء على أموال المواطنين لا يزال حاضراً فى الأذهان .

---

* نُشِر بصحيفة أخبار اليوم فى ٢٥ / ١٠ / ٢٠٠٨م .

ولو اقتصر الواحد من هؤلاء الجاهلين المتشددين على الاهتمام بنفسه وترك خلق الله يُكيفون حياتهم على النحو الذى يريدون ، طالما أنهم لايخرجون فى تصرفاتهم عن جوهر الدين ، لما كانت هناك مشكلة ، ولكن المشكلة أن هؤلاء يريدون أن يحملوا الآخرين على الاقتداء بهم فى مظهرهم والانخراط فى دائرتهم . ولسنا ضد أن يشدد إنسان على نفسه على النحو الذى يريد ، وأن يتعبد بالطريقة التى يعتقد أنها تريح ضميره ، لكن أن يدعو الآخرين إلى الاقتداء به فى التشدد ، ونَشْر هذا التشدد بين الناس باسم الدين ، فهذا هو الأمر المرفوض ، ومن هنا رفض النبى ﷺ التشدد فى الدين قائلاً : [**لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم**] [1] . [**إن الدين يُسْر ، ولن يُشَادّ الدين أحد إلا غلبه**] [2].

والإسلام فى جوهره دين الوسطية والاعتدال ، لا يطلب من أتباعه أن يعملوا للدنيا على حساب الآخرة ، ولا للآخرة على حساب الدنيا . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ **وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا** ﴾ [القصص : ٧٧] ومن المرويات فى هذا الصدد أن ثلاثة من الصحابة ذهبوا إلى بيت النبى يسألون عن عبادته ليقتدوا بما يفعل . فلما حكى لهم ما يفعله النبى كأنهم تقالوها ، أى : اعتبروها قليلة بالقياس إلى ما يفعلونه .

فقال أحدهم إنه يصلى الليل كله ولا يرقد ، وقال الثانى إنه يصوم ولايفطر ، وقال الثالث إنه يعتزل النساء ولا يتزوج . وعندما سمع الرسول

١ـ أخرجه أبو داود فى سننه (حديث رقم ٤٢٥٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

٢ـ أخرجه البخارى فى صحيحه (حديث ٣٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

مقالتهم خرج إليهم وقال : [**والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصلى وأرقد ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى**][1] .

إن التدين الحقيقى ـ كما أشرنا ـ ليس رسوماً ولا أشكالاً ولا طقوساً مظهرية وإنما هو علاقة حميمة تربط بين الإنسان والله الذى لا ينظر إلى صورنا وأشكالنا ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا ـ كما جاء فى الحديث النبوى الشريف ـ .

وهناك وجه آخر لهذا التشدد الممقوت يتمثل فى الميل إلى الإفراط فى تحريم مباهج الحياة التى يسميها القرآن **"الطيبات من الرزق"** لدرجة جعلت هؤلاء المتشددين يجعلون من الإسلام قائمة طويلة من المحرمات ، وجعلت من الدين عدواً للحياة . فالتدين لدى هؤلاء صِنْو للتجهم والكآبة ورفض لكل ما يُدخِل السرور والبهجة على حياة الناس .

فالموسيقى حرام والغناء حرام حتى ولو كان فى المدائح النبوية . واللهو البرىء حرام ، والتمثيل حرام حتى لو كان يحمل رسالة دينية أو أخلاقية أو اجتماعية . والنقاب للمرأة فرض لا يجوز أن يظهر منه إلا سواد عينيها وتتبارى بعض الفضائيات فى هذا المجال . وقائمة المحرمات لا تنتهى ، بل يضيف إليها هؤلاء من عندياتهم كل يوم شيئاً جديداً يضاف إلى هذه القائمة ، على الرغم من أن التحريم فى الإسلام لا يكون إلا بنص صريح لا يقبل التأويل .

١ـ متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٧٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٨٧) عن أنس بن مالك.

ويرجع السبب فى ذلك كله إلى ضيق الأفق ومحدودية الثقافة الدينية وقلة الفقه بالدين لدى هؤلاء العابثين بدين الله الذى لم يعطهم توكيلاً ليكونوا متحدثين رسميين باسم الدين ، وليكونوا أوصياء على الآخرين يُكفِّرون هذا ويحكمون بالفسق والابتداع على ذاك ، ويعطون لأنفسهم الحق فى الحكم بطرد هذا أو ذاك من رحمة الله .

إن الدين أرحم من هؤلاء بعباد الله . فرسالة الإسلام جاءت فى الأساس رحمة للعالمين بنص القرآن فى قوله تعالى مخاطباً النبى عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] . والقرآن يفتح باب الأمل على مصراعيه أمام كل الناس فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

والتمتع بمباهج الحياة والطيبات من الرزق من الأمور المقررة فى الدين. وليس من حق أحد أيًّا كان أن يعطى لنفسه الحق فى تحريم ما أحل الله . ومن أجل ذلك يستنكر القرآن صنيع هؤلاء الجاهلين وأمثالهم فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

ويؤكد القرآن رفضه القاطع تحريم ما أحله الله لعباده من طيبات الحياة بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٧] .

وطيبات الحياة ومباهجها من نعم الله على الإنسان التى تستحق الشكر عليها . وفى هذا المعنى يقول الشيخ محمد الغزالى ـ رحمه الله ـ : **"أنا رجل مسلم أحب الحياة ، وأبتهج بطيباتها . إن الله استضافنى فى كونه وأطعمنى خيره . فمن السفاهة أن أرفض الكرم المبذول ، ومن السفاهة كذلك أن أضن بشكر المنعم"** [1].

والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : [**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**] [2] .

فمن حق كل إنسان أن يتمتع بما أحله الله له فى مطعمه وملبسه ومسكنه ، ومن حقه الاستجمام من عناء العمل ، والترويح عن النفس لطرد الملل والسآمة عن حياته . ومن هنا كان قول النبى عليه الصلاة والسلام : [**روّحوا القلوب ساعة فساعة**] [3] ، أى أريحوها باللهو المباح حتى تنشط استعداداً لاستئناف العمل من جديد . فالقلوب تصاب بالملل والسأم كما هو الشأن كذلك بالنسبة للأبدان . كما ورد أيضاً عن الإمام على كرم الله وجهه : **" إن القلوب إذا كلّتْ عميت "** . ومن أجل ذلك فإنها فى حاجة ماسة إلى الترويح الذى يزيل عنها هذا الملل ، ويبعث فيها الحيوية والنشاط من جديد حتى تصبح قادرة على مواصلة مسيرة الحياة [**فإن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى**] [4].

١ـ مائة سؤال عن الإسلام للشيخ للغزالى ، ص ١٤٧ ، دار ثابت .

٢ـ رواه الترمذى فى سننه (حديث ٢٧٤٤) بسند حسن عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

٣ـ أخرجه الديلمى عن أنس.

٤ـ أخرجه البيهقى فى شُعَب الإيمان ، ج٣ ، ص٤٠٢ عن جابر بن عبدالله.

ويُروى عن الصحابى الجليل أبى الدرداء قوله : " إنى لأجم فؤادى - أى أريحه - ببعض الباطل ، أى بشيء من اللهو الجائز ، لأنشط للحق " . وقد قُرِىء عند النبى قرآن وأنشد شعر ، فقيل : يا رسول الله : أقرآن وشعر فى مجلس ؟ فقال النبى : [**نعم ساعة هذا وساعة ذاك**] [1] .

وقد سمح النبى للسيدة عائشة أن تشاهد الأحباش وهم يؤدون بعض الألعاب فى المسجد النبوى . وذات يوم دخل النبى على عائشة وكانت تزف جارية يتيمة لديها لرجل من الأنصار فلم يسمع شيئاً يوحى بالفرح الذى هو سمة مثل هذه المناسبات ، فقال : [**هلا بعثتم معها من يغنيهم يقول : أتيناكم أتيناكم فحيُّونا نحييكم . فإن الأنصار قوم فيهم غزل**] (وفى رواية أخرى) : [**قوم يحبون الغناء**] [2] .

إن الحياة ليست كلها جداً وكداً ونكداً وإنما هى أيضاً مرح وراحة وترويح عن النفس فى إطار المعقول . ولقد استمع النبى عليه الصلاة والسلام للشعر الذى يتضمن شيئاً من الغزل فلم ينكر ذلك انطلاقاً من أن الإسلام لا يمكن أن يصادر العواطف والمشاعر الإنسانية الرقيقة .

ومن ذلك ما أنشده كعب بن زهير أمام النبى عليه الصلاة والسلام من قصيدته التى أراد بها أن يستعطف النبى للعفو عنه ، وجاء فى مطلعها:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِى اليَوْمَ مَتْبولُ

مُتَيَّـم إثْرهَـا لـم يُفْدَ مكبـول

١ـ كشف الخفاء ، ج١ ، ص ٤٣٥ .

٢ـ مسند أحمد ، ج٣ ، ص٣٩١ من حديث جابر بن عبدالله.

وكان عليه الصلاة والسلام بساماً ضاحكاً ـ كما تروى عنه السيدة عائشة ـ وكان يمزح ولا يقول إلا حقاً .

ولكن غلاظ القلوب ومُتبلدى الإحساس يريدون أن يحملوا الناس على الاقتداء بهم . وليتهم يقرأون قول الله لنبيه : ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

إن الجهل آفة من الآفات التى تجعل صاحبها ينفِّر الناس من الدين ويصدهم عن سبيل الله بما ينشره من غثاء لا صلة له بالدين ، وبدلاً من أن يستر الجاهلون جهلهم يتبجحون به على الناس دون حياء ، لا من الله ولا من رسوله ولا من المؤمنين .

وما يفعله هؤلاء هو التنطع بعينه . والمتنطعون هم المتشددون المتقعرون الذين يفسدون على الناس سماحة الدين ويسره وبساطته ، ويدسون أنوفهم فى كل صغيرة وكبيرة فى حياة الناس ويسدون أمامهم أبواب الأمل ، ويُضيقون عليهم رحمة الله الواسعة . وقد توعد النبى عليه الصلاة والسلام هؤلاء المتنطعين بالهلاك فى قوله : [**هلك المتنطعون**] وكررها ثلاثاً [١] .

إن الله وحده هو المطلع على القلوب ، وهو وحده الذى سيفصل بين الناس يوم القيامة ، وعلى هؤلاء المتنطعين أن يكفوا عن شغل المسلمين بصغائر الأمور فى الوقت الذى يصارعهم فيه الآخرون فى عظائم الأمور وفى قضاياهم المصيرية .

١ـ أخرجه مسلم فى صحيحه (حديث ٤٨٢٣) من حديث عبدالله بن مسعود.

وليس هناك من شك فى أن التدهور فى الفكر الدينى والذى يتسبب فيه هؤلاء من شأنه أن يصرف المسلمين عن الاهتمام بأمور الدنيا التى خلقها الله لنا لنعمرها بالعلم ونبنيها بالعمل ونثريها بالخير وننشر فيها الأمن والسلام والاستقرار . وعلى هؤلاء العابثين فى وقت الجد أن يفيقوا من غفوتهم ويثوبوا إلى رشدهم ويعلموا أن الدين للحياة وليس عدواً للحياة كما يتصورون .

٤ ثقافة الأمل فى ضوء تعاليم الإسلام (*)

١ـ الخطاب الدينى والتراجع الحضارى :

لقد درج الخطاب الدينى منذ عصور التراجع الحضارى للأمة الإسلامية على التركيز على الأمور الغيبية والانشغال بأمور الآخرة على حساب الأمور الدنيوية .. واهتم اهتماماً مبالغاً فيه بالحديث عن عذاب القبر وأهوال يوم القيامة . وانشغل الخطاب الدينى بصفة أساسية بالترهيب بدلاً من الترغيب ، والتشدد فى أمور الدين بدلاً من التيسير . واهتم بالأمور الهامشية والشكلية بدلاً من الاهتمام بمقاصد الشريعة وجوهر الدين والقيم الإسلامية الدافعة لتقدم المجتمع وترقية الحياة .

وقد كان من نتيجة ذلك أن ساد التواكل بين الناس والخوف من المصير المجهول ، وانتشر الفهم المغلوط للقضاء والقدر ، وتلاشت المبادرات الذاتية اعتماداً على معجزات غيبية . وعلى الرغم من التطورات المذهلة التى حدثت فى عالمنا المعاصر على جميع المستويات والتى أحدثت نقلة نوعية فى أفكار الناس وثقافتهم فإنه لا تزال هناك آثار باقية مترسبة فى الخطاب الدينى حتى اليوم سواء من حيث الشكل أو الموضوع .

وقد آن الأوان لأن يتخلى الخطاب الدينى المعاصر عن هذا التوجه الذى ورثناه من عصور التراجع الحضارى . فالأمة الإسلامية اليوم فى أشد الحاجة

---

* تم إعداد هذا الموضوع فى الأصل ليكون مقدمة لكتاب (ثقافة الأمل فى ضوء تعاليم الإسلام) من إصدار وزارة الأوقاف (٢٠٠٩) .

إلى صحوة حضارية . وعالمنا المعاصر عالم مختلف اختلافاً جذرياً عن العوالم السابقة بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثورة العلمية والتكنولوجية ، وذلك فضلاً عن تداعيات عصر العولمة فى مختلف الاتجاهات . ولن يكون للعالم الإسلامى مكان فى هذا العالم إلا إذا نفض عن نفسه غبار التخلف ، واتجه بكل ما يستطيع من جهد إلى التزود من العلوم والتنافس فيها ليبنى ويعمِّر ، ويحقق إرادة الله فى استخلاف الإنسان فى الأرض لعمارتها وصنع الحضارة فيها .

٢ـ الخطاب الدينى والعمل للدنيا :

وهذه الصحوة الحضارية تتطلب خطاباً دينياً مختلفاً يبعث الأمل فى النفوس لينطلق المسلمون إلى العمل والإنتاج من أجل هذه الدنيا التى نعيش فيها . فمَنْ لا خير له فى دنياه لا خير له فى آخرته . وقد كان من دعاء النبى ﷺ : **"اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر "** [1] .

وفى هذا الدعاء اختص النبى عليه الصلاة والسلام الدنيا بدعاءين : ركَّز فى أولهما على طلب إصلاح الدنيا التى فيها معاش الإنسان ، وفى ثانيهما عبَّر عن الرجاء فى أن تكون الحياة فى الدنيا زيادة له فى كل خير . فالنبى صاحب الدعوة لم يهمل الدنيا والعمل من أجل صلاحها وزيادة الخير فيها .

١ـ أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (حديث ٤٨٩٧) عن أبى هريرة .

والمسلمون اليوم فى أشد الحاجة إلى العمل من أجل الدنيا دون إهمال لأمور الآخرة بطبيعة الحال . والخطاب الدينى اليوم مطالب بالتجديد فى أسلوبه وفى موضوعاته . وبصفة خاصة فى بث روح الأمل والتفاؤل فى النفوس . فالإنسان المحبط اليائس لا يُنتظر منه أن يفعل شيئاً لتغيير أوضاعه .أما النفوس المملوءة بالأمل فهى المؤهلة للانفتاح على الحياة وعلى العمل والإنتاج.

ولسنا نعدو قول الحق إذا قلنا إن الأمل يُعدُّ شريان الحياة . فالحياة بلا أمل حياة فارغة لا معنى لها ، بل يمكن القول بأنها والموت صنوان . فالأمل هو الذى يجعل الإنسان يحب الحياة ويعمل من أجلها لخير نفسه وخير مجتمعه ولترقية الحياة ذاتها وإثرائها .

٣ـ ارتباط الأمل بالإيمان :

والدين من شأنه أن يغرس الأمل فى النفوس . ومن هنا يرتبط الإيمان بالأمل ارتباطاً وثيقاً ويشكلان وحدة واحدة . فالمؤمن لا يمكن أن ييأس أو يصاب بالإحباط والقنوط أو يتسرب القلق إلى نفسه ، لأنه يثق فى الله وفى عدله وفى رحمته ، وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً . فالله أرحم بعباده الذين خلقهم من الأم بولدها . ولذلك يرزق المؤمن والكافر . ولكنه يمهل الظالم ولا يهمل عقابه إن عاجلاً أو آجلاً .

ويؤكد القرآن الكريم أن المؤمن لا يعرف اليأس : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] . ومن ذلك يتضح أن الأمل يُعدُّ

نتيجة طبيعية للإيمان ، ومن هنا فإنه نعمة كبرى ومِنَّة إلهية ، ورحمة من عند الله لعباده . فلولا الأمل " **ما أرضعت أم ولداً ولا غرس غارسٌ شجراً** " كما جاء فى بعض الآثار الإسلامية المروية عن أنس بن مالك [1].

٤ـ الأمل والتوبة :

والله يفتح للمذنبين الذين أسرفوا على أنفسهم باب الأمل فى التوبة على مصراعيه . وهذا ما يؤكد عليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر : ٥٣] .

وزيادة فى مدِّ حبال الأمل لمن يتسرب اليأس إلى قلوبهم يعلن الرسول ﷺ أن الإنسان من شأنه أن يخطيء . والخطأ فى حد ذاته ليس عيباً ، ولكن الإصرار على الخطأ هو الذى يبعد الإنسان عن الله ، فـ **"كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون "** [2] . كما يقول النبى عليه الصلاة والسلام .

وتشجيعاً لهم على التوبة وعدم فقدان الأمل يخبرنا القرآن الكريم بأن الله يحب التوابين ، ويخبرنا الحديث النبوى بأن الله يفرح بتوبة عبده . وهذا كله يبين لنا ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ أن باب الأمل مفتوح لا يُغلق أبداً . وهذا من شأنه تأكيد الثقة فى الله وفى عدله ، وإحياء الأمل فى النفوس وإنعاشها بالرجاء فى الاستجابة .

١ـ انظر : جامع الأحاديث الجزء التاسع ، ص ٤٦٣ .

٢ـ أخرجه ابن ماجه فى سننه كتاب الزهد ، باب (٢٠) (حديث ٤٢٤١) عن أنس بن مالك.

ومن أجل ذلك يحطم الدين كل الحواجز التى تفصل بين الله والإنسان. فالله قريب من الإنسان يجيب دعوة من يدعوه ، بل هو أقرب إليه من حبل الوريد ، ولذلك يطلب الله من الإنسان أن يدعوه مباشرة دون وساطة : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] . كما يقرر القرآن ذلك فى وضوح لا لبس فيه .

ويمتد هذا الأمل مع الإنسان المؤمن بالله إلى آخر لحظة فى حياته . ولذلك يحث النبى ﷺ المؤمنين على أن يفعلوا الخير حتى آخر نَفَس فى حياتهم ، حتى ولو قامت الساعة ، ما دام الإنسان فى موقف يستطيع من خلاله أن يقدم شيئاً . ويعبر عن ذلك الحديث النبوى : **"إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل"**[1].

٥ـ الأمل والحياة :

إن التمسُّك بالأمل هو فى حد ذاته تمسك بالحياة ، وهو فى الوقت نفسه ثقة تملأ جوانب النفس الإنسانية ، وتُشعِر الإنسان بأنه يستطيع أن يتغلب على كل ما يعترضه من صعاب ، لأن الأمل يمد الإنسان بأسباب القوة للتغلب على كل العقبات .

إننا مدعوون إلى التمسك بالأمل والإقبال على الحياة ، وألا ننظر إليها بمنظار أسود يرى فقط نصف الكوب الفارغ ولا يرى النصف الآخر المملوء .

١ـ أخرجه الإمام أحمد فى مسنده من حديث أنس بن مالك (حديث رقم ١٢٥١٢ – تحقيق الشيخ أحمد شاكر).

إن حياتنا ليس لها وجه واحد ، ففيها الخير وفيها الشر أيضاً ، وفيها جوانب إيجابية وأخرى سلبية . فلنغلِّب الجانب الإيجابى الذى هو دائماً جانب الأمل حتى نستطيع ـ بسلاح الأمل ـ أن نتغلب على الجوانب السلبية فى الحياة . فبالأمل والإصرار عليه وبالإرادة القوية يستطيع الإنسان أن يملى إرادته على دنيا اليأس والإحباط .

وقد عبَّر إيليا أبو ماضى فى قصيدته الشهيرة " فلسفة الحياة" عن عبثية النظرة التشاؤمية للحياة بقوله :

إن شـر الجناة فـى الأرض نفـس ... تتوقـى قبل الرحيل الرحيـلا

وترى الشوك فى الورود وتعمى ... أن ترى الندى فوقهـا إكليلا

والـذى نـفسـه بغـير جـمـال ... لا يرى فى الوجود شيئاً جميلاً

٥ أفلا يتدبرون القرآن ؟ (*)

لقد منح الله الإنسان عقلاً ليفكر به ويتدبر من خلاله ملكوت السماوات والأرض ، وأمره بقراءة الكتاب المسطور وهو القرآن الكريم وقراءة الكتاب المفتوح وهو الكون بما فيه من سماء وأرض وما بينهما من كائنات تشتمل على الكثير من آيات الله فى الكون وفى الإنسان . ومن شأن كل هذه الآيات الإنسانية والكونية أن توجه الإنسان إلى ما وراء هذا الكون المنظور من قوة عظمى تقوم بتسييره حسب قوانين لا تتخلف ولاتتبدل . وهكذا نجد أن دائرة عمل العقل الإنسانى دائرة واسعة تفتح أمامه آفاقاً رحبة من العمل المتواصل الذى لا نهاية له .

وقد أراد الله أن يساعد الإنسان بالإضافة إلى نعمة العقل بنعمة أخرى ؛ تتمثل فى منهج إلهى يعطى له النور الذى يضيء له جوانب حياته ، ألا وهو الوحى الإلهى الذى أنزله الله على أنبيائه على مدى تاريخ البشرية ، والذى كانت خاتمته متمثلة فى القرآن الكريم .

ومن المعلوم أن القرآن الكريم يعد معجزة عقلية مستمرة إلى قيام الساعة . وقد كان هذا التوجه القرآنى واضحاً منذ اللحظة الأولى . فلم يكن هناك فى الرسالة الخاتمة ميل إلى التركيز على معجزات حسية ينتهى

---

* نُشِر بصحيفة أخبار اليوم فى ٢٢ / ١١ / ٢٠٠٨م .

تأثيرها بانتهاء عصرها ، ومن هنا لم يكن لها فى رسالة الإسلام إلا دور هامشى ثانوى لا يعوَّل عليه كثيراً . أما القرآن الكريم فهو الوحى الخالد الذى جاء مخاطباً العقل الإنسانى ، دافعاً إلى التأمل والتفكير فى ملكوت السماوات والأرض .

وما دام الأمر كذلك فإنه لا مفر من استخدام العقل الإنسانى فى فهم القرآن الكريم وتدبُّر معانيه . فالقرآن لم يأت لمجرد قراءته دون فهم أو ترديد آياته دون وعى ، كما أنه لم يأت ليكون كتاباً نقرأ به على الأموات ونضعه فى البيوت والسيارات لمجرد التبرك به ، فهذا لم يكن ولن يكون مقصود الوحى القرآنى . وإنما هو كتاب للحياة بكل أبعادها من أجل إعمارها بالروح والمادة على السواء .

ولا جدال فى أن الوقوف على أسرار القرآن وتدبر معانيه فى حاجة إلى عقل رشيد بما لديه من إمكانات لا حدود لها لفهم هذا القرآن على نحو سليم لتحقيق الهدف الأسمى من هذا الوحى القرآنى العظيم . ومن أجل ذلك وجدنا القرآن يدفع المسلمين دفعاً إلى السير فى هذا الطريق ، ويحثهم على استخدام كل قدراتهم العقلية فى فهم جوهر هذا الوحى .

ومن ذلك ما جاء فى القرآن الكريم من قوله تعالى : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ** ... ﴾ [النساء : ٨٢] ، ونفس المعنى فى قوله تعالى : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ** ﴾ [محمد : ٢٤] . وقوله تعالى : ﴿ **كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ [ص : ٢٩] .

واستخدام القرآن للفظ التدبر هنا بدلاً من التفكر له مغزى لا يجوز أن يغيب عن الأذهان . فإذا كان التدبر فى الأمر بصفة عامة معناه التفكر فيه ، فإن هناك من غير شك فرقاً بين التفكر والتدبر . فالقرآن الكريم حين يذكر المعنى الواحد بألفاظ مختلفة فإنه لا يفعل ذلك مجرد التكرار بأسلوب مختلف ، وإنما يأتى ذلك قصداً لإبراز معنى جديد . ومن هنا فإننا نرى فى الإشارة إلى لفظ التدبر معنى جديداً يزيد على مجرد التفكر . فالتدبر فى الأمر يعد تفكراً وزيادة ، ذلك لأن التفكر يعنى تصرف العقل بالنظر فى الأدلة والظواهر الإنسانية والكونية ، بينما التدبر يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك . فهو تصرف العقل بالنظر فى عواقب الأمور .

وهذا يعنى أن التدبر تأمل عميق ونظر دقيق وتقليب الأمر على وجوهه المختلفة والبحث عما يؤول إليه فى عاقبته ومنتهاه ، وبمعنى آخر هو إحاطة شاملة بكل جوانب الموضوع . وقد ورد لفظ التفكر ومشتقاته فى القرآن الكريم فى ثمانية عشر موضعاً . بينما لفظ التدبر لم يرد إلا فى أربعة مواضع فقط ، وكلها تحث الإنسان على التدبر . والأمر اللافت للنظر هو ورود لفظ التدبير (وهو من مشتقات التدبر) منسوباً إلى الله تعالى فى أربعة مواضع بتعبير (يدبر الأمر) . بينما لم يرد لفظ التفكر أو مشتقاته منسوباً إلى الله لأن التفكر شأن إنسانى بحت .

ومن الأوصاف البليغة التى أطلقها القرآن الكريم على أصحاب العقول الراجحة التى ترتفع إلى درجة التدبر تعبير (**أولى النُّهى**) وهم

أصحاب العقول التى بلغت الغاية من الفهم والإدراك ، وكذلك تعبير **(أولى الألباب)** وهم الذين يبحثون عن جوهر الأشياء وبواطنها ولا يقفون كثيراً عند الظواهر والقشور . وقد ورد تعبير **(أولى الألباب)** فى القرآن الكريم فى ستة عشر موضعاً .

وتكرار تعبير **(أولى الألباب)** فى القرآن الكريم يدل ـ كما يقول الشيخ الغزالى ـ على أن القرآن " يطلب من المسلمين أن يكونوا أصحاب عقول مستنيرة وأصحاب معرفة مستوعبة وأصحاب علم واسع ، فالأفق الضيق شر على صاحبه ، وشر على المبدأ الذى يحمله ، وشر على العقيدة التى ينقلها للناس " .

ويمكن أن نستنتج من ذلك كله أن التدبر درجة فوق التفكر لا يصل إليها إلا أصحاب العقول الراجحة . وحين يُنسب التدبر للإنسان فإن ذلك يعنى أنه يتطلب منه الكثير من بذل الجهد العقلى بينما عندما ينسب التدبير إلى الله فإن ذلك لا يتضمن هذا المعنى ، فالله حين يدبر أمراً فإنه يقرر ويقضى ويحكم . وهذا معنى لا صلة له بالتدبر المطلوب من الإنسان .

والقرآن الكريم يستنكر موقف هؤلاء الذين لا يريدون أن يتدبروا آيات القرآن ، ويرجع ذلك إلى أنهم أغلقوا وسائل الإدراك الحسية والعقلية لديهم ، فلم يعودوا يسمعون أو يبصرون أو يعقلون ، ولا يريدون أن يبذلوا فى سبيل فهم المعانى القرآنية أى جهد ، وبذلك حرموا أنفسهم من نور الهداية الإلهية .

إن القرآن الكريم كتاب هداية ، ولكنه ـ كما أشرنا ـ فى حاجة إلى عقول تدرك وقلوب تفهم حتى تستطيع أن تصل إلى مراد الله من إنزال هذا الوحى الإلهى لتشرق به النفوس وتضيء به العقول وتتفتح بأنواره القلوب ، وتسمو به المشاعر وترتقى الأرواح فى مدارج النور حتى تلامس عتبات الفيوض الربانية . وتلك مرتبة لا يصل إليها إلا من تدبر آيات القرآن بحق وأدرك معانيه بصدق وإخلاص .

وإذا كانت تلاوة القرآن وحفظه فى الصدور من الأمور المرغوبة التى يُؤجر عليها صاحبها ، فإن الثواب الأعظم يكون من نصيب هؤلاء الذين يتدبرون آيات القرآن الكريم وتتفتح بصائرهم وأبصارهم للعمل بما جاء فيه . فالتلاوة والحفظ إذن ليسا هدفاً فى ذاتهما ، وإنما هما بداية الطريق للوصول إلى الهدف الأسمى وهو العلم بما جاء فى القرآن الكريم والعمل بمقتضى هذا العلم . وهذا هو غاية المراد .

لقد أراد الله لهذا القرآن العظيم أن يكون معجزة عقلية باقية أبد الدهر تحترم عقل الإنسان وتخاطبه بالحجة والبرهان . وقد اشتمل القرآن على العقائد والأخلاق والتشريعات وأخبار الأولين وأحوال الدار الآخرة ، كما اشتمل على الحث على إعمار الكون والتدبر فى ملكوت السماوات والأرض وتمكين العقل الإنسانى من أداء دوره كاملاً فى الحياة .

وفى ذلك كله تحفيز للمسلمين ليعملوا عقولهم فى البحث والتنقيب عن سنن الله فى هذا الكون والكشف عن أسراره ؛ فإن ذلك لن يكون متاحاً إلا لمن لديه الاستعداد للتفكير السليم والنظر العقلى الرشيد

والبحث العلمى القائم على أسس صحيحة ومناهج قويمة ، كما يؤخذ ذلك من آيات القرآن الكريم ، وهذا هو المعنى المقصود من تدبر آيات القرآن الكريم .

وقد أدرك المسلمون منذ الصدر الأول للإسلام ما فى القرآن الكريم من إرشادات ربانية وتوجيهات إلهية تهدف إلى تحقيق الخير للإنسان ، فشمّروا عن ساعد الجد وقاموا بحركة علمية كبرى أدت إلى صنع حضارة عريقة كانت من أطول الحضارات عمراً فى التاريخ . وقد استفادت منها البشرية أعظم فائدة ، وكانت من أقوى الحوافز لأوروبا فى العصر الوسيط لبناء نهضة جديدة مهدت الطريق للحضارة الحديثة .

وهكذا كان القرآن الكريم بما فيه من قيم نبيلة ، وما اشتمل عليه من تعاليم سامية ، محور اهتمام المسلمين على المستويين النظرى والعملى . وكان صحابة رسول الله ﷺ إذا حفظ الواحد منهم عشر آيات من القرآن لايغادرها إلى غيرها إلا بعد أن يعمل بما جاء فيها[1]. وغنىٌّ عن البيان أن هذا العمل يكون مبنياً على علم وفهم وإدراك لما جاء فى هذه الآيات القرآنية.

وقد يثير البعض هنا سؤالاً مشروعاً يحتاج إلى إجابة شافية ، فمن المعلوم من القرآن الكريم أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها . وإذا كان الأمر ـ كما سبق بيانه ـ وهو أن من الضرورى تدبر آيات القرآن بالمعنى الذى

١ـ يراجع الطبرى فى مقدمة تفسيره ١ / ٨٠ .

أوردناه والذى لا يصل إليه إلا أصحاب العقول الراجحة ، فما هو الشأن إذن بالنسبة إلى عامة الناس الذين لا تساعدهم قدراتهم العقلية المحدودة إلى الوصول إلى هذه الدرجة ؟

والإجابة عن ذلك تتمثل فى أنه إذا كان مطلوباً من أصحاب العقول الراجحة أن يتدبروا القرآن ، فإن عليهم مسئولية نشر ما توصلوا إليه من علم بين الناس حتى يستفيد منه العامة والخاصة وبذلك يعم الخير الجميع . فإنه لا يجوز لعالم أن يكتم علماً تعلمه أو فتح الله به عليه . فإنه مسئول بدوره أن يفتح بهذا العلم قلوباً غلفاً وآذاناً صماً وأعيناً عمياً ، فإذا لم يفعل ذلك فلا خير فيه ولا فى علمه ، فكتمان العلم إثم يعادل كتمان الشهادة . فالعلم النافع أجره مستمر عند الله إلى قيام الساعة كما ورد فى الحديث الشريف : [**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له**][1] .

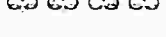

١ـ صحيح مسلم من حديث أبى هريرة (حديث ٣٠٨٤) وكذا الإمام أحمد فى مسنده (٨٤٨٩) .

٦ ردة حضارية ! (*)

فى الوقت الذى تطالعنا فيه الصحف بمنح جائزة نوبل فى الطب والكيمياء والاقتصاد لأربع سيدات من أمريكا وألمانيا وإسرائيل نشغل أنفسنا وإعلامنا بمعركة حامية الوطيس حول نقاب المرأة ، اختزلنا فيها الإسلام فى قطعة من قماش تغطى وجه المرأة وتلغى شخصيتها وتجعلها تفقد التواصل مع المجتمع ، وبذلك ظلمنا الإسلام وظلمنا المرأة ورجعنا بها إلى عصر الجاهلية الأولى .

وفى الوقت الذى يتبارى فيه المؤيدون للنقاب فى الدفاع بحماس عن هذه القضية "المصيرية" وكأنهم فى معركة حربية تعمل إسرائيل بجد ونشاط لتهويد القدس وهدم المسجد الأقصى ! وهذا أمر محزن أن تكون قضايانا التى نشغل أنفسنا بها على هذا النحو من التدني ، بينما الآخرون يتنافسون فى مجال العلم والحضارة أو يحطمون مقدساتنا ونحن لاهون عابثون. وقد صدق من وصف الأمة الإسلامية فى العصر الحاضر بأنها "أمة حائرة فى عالم محير" .

إن قضية نقاب المرأة قد قُتِلَت بحثاً فى مصر منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وناضل رجال شرفاء من أجل تحرير المرأة فى إطار الفهم الصحيح لتعاليم الإسلام ، وتحطيم الحواجز المصطنعة بينها

---

* نشر بجريدة الأهرام فى ٢١ / ١٠ / ٢٠٠٩م .

وبين التواصل مع مجتمعها ، ونأتى اليوم لنعيد الأمر من جديد فى ردة حضارية تدعو للأسى والحزن ، يراد منها إلصاق عادات وتقاليد بالية بهذا الدين العظيم المظلوم من أهله.

إن الإسلام يفرض على المرأة أن تكشف وجهها فى الحج والعمرة والصلاة ، والقرآن الكريم حين يطلب من الرجل غض البصر فى قوله تعالى ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [النور : ٣٠] ، فإن ذلك يفترض أن يغض المرء البصر عن النظر إلى وجه المرأة الذى يراه ويراه الآخرون ، وإلا فإنها إذا كانت منتقبة فعن أى شيء يطلب منه القرآن أن يغض بصره عنه؟ وإذا لم يكن المراد غض البصر عن وجه المرأة فهل المراد غض البصر عن القفا والظهر ـ كما يتساءل الشيخ محمد الغزالى متهكماً على دعاة النقاب ـ؟

لقد كانت المرأة فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام تصلى فى المسجد ولم تكن منتقبة ، ومن الأحاديث النبوية الواردة فى صحيح الإمام مسلم فى هذا الصدد أن النبى عليه الصلاة والسلام خاطب النساء فى يوم عيد ـ وكان مصلى العيد يجمع الرجال والنساء ـ فقامت امرأة "سفعاء الخدين" أى أن وجهها يجمع بين الحمرة والسمرة ـ وسألته توضيحاً لبعض ما ورد فى حديثه ، فكيف عرف الراوى أن المرأة سفعاء الخدين ، إلا إذا كان قد رأى وجهها على هذا النحو فى مجلس حضره رسول الله ﷺ ؟[1]

١ـ أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (١٤٦٧) . والإمام أحمد فى مسنده (١٣٩٠٠) من حديث جابر بن عبدالله . وكان فى يوم عيد.

وورد فى صحيح البخارى عن ابن عباس أن الفضل كان رديف النبى عليه الصلاة والسلام فى حجة الوداع ، فجاءت امرأة من خثعم فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فجعل النبى يصرف وجه الفضل إلى الجانب الآخر[1] ، وسألت النبى عما إذا كان يجوز لها أن تحج نيابة عن والدها الذى لم يعد قادراً على أداء الفريضة فقال لها : نعم ، ولم يطلب منها النبى أن تغطى وجهها.

"إن المعارضين لكشف وجه المرأة ، كما يقول المرحوم الشيخ الغزالى أيضاً : يتمسكون بأدلة واهية ويتصرفون فى قضايا المرأة كلها على نحو يهز الكيان الروحى والثقافى والاجتماعى لأمة أكلها الجهل والاعوجاج لما حكمت على المرأة بالموت الأدبى والعلمي" [2].

إن من حق المرأة ومن واجبها أن تتواصل مع مجتمعها ، ولاشك فى أن النقاب ـ الذى هو مجرد عادة وليس عبادة ـ يشكل عقبة كأداء فى طريق هذا التواصل.

ولا يجوز أن يُفهم نقاب المرأة على أنه شكل من أشكال الحرية الشخصية ، إنه بالأحرى إساءة استخدام لهذه الحرية وافتئات على حق المجتمع فى ضرورة الإفصاح عن شخصيات أفراده ، ضماناً لأمنه واستقراره.

١ـ أخرجه البخارى فى صحيحه (١٧٢٢) من حديث ابن عباس . وفيه أن هذا كان فى الحج (حجة الوداع) .

٢ـ السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث للشيخ محمد الغزالى ص ٤١ ، دار الشروق .

التأثير الدينى على التشريع فى مصر (*)

عندما نتحدث عن التأثير الدينى على التشريع فى أى دولة من الدول يجب علينا أن نأخذ فى اعتبارنا أمرين مهمين :

(١) طبيعة الدين الذى نتحدث عنه .

(٢) أحوال وظروف المجتمع فى هذه الدولة أو تلك والأحوال الدينية فيها بصفة خاصة .

أما الأمر الأول فإنه فيما يتعلق بالإسلام على وجه الخصوص نجد أن طبيعة الدين الإسلامى تتلخص فى أنه دين للحياة يجمع أبعادها المختلفة ، بمعنى أنه يرمى إلى تنظيم حياة الناس فى المجتمع بما يشتمل عليه من تعاليم تنظم العلاقة بين الله والإنسان من ناحية ، وتنظم علاقة الأفراد بعضهم ببعض ، وعلاقتهم بالمجتمع وبالدولة من ناحية أخرى ، أى أنه ينظم الحقوق والواجبات فى المجتمع بصفة عامة .

وقد ظل المجتمع الإسلامى على مدى قرون عديدة يسير فى تشريعاته وفق هذه التعاليم ، وبصفة خاصة فى ظل الدولة الموحدة التى كان يحكمها رأس الدولة وهو الخليفة . وظل الأمر على ذلك فى الأقطار التابعة لدولة

---

* تم إعداد هذا الموضوع فى الأصل باللغة الألمانية بناء على طلب نقابة المحامين فى ألمانيا للمؤتمر الدولى حول "التأثير الدينى على التشريع" بمدينة فرانكفورت (٢٩-٣١ أكتوبر٢٠٠٩) .

الخلافة بدرجات متفاوتة إلى أن انهارت دولة الخلافة فى العقد الثالث من القرن الماضى . وعلى الرغم من ذلك ظل الإسلام يجمع بين الدول الإسلامية ويشكل هويتها .

أما الأمر الثانى وهو أحوال وظروف المجتمع والأحوال الدينية الغالبة عليه فإنه يجدر بنا أن نشير إلى أن مدى قرب علاقة أى قطر من الأقطار الإسلامية أو بُعْده من الارتباط التام أو الارتباط الإسمى بدولة الخلافة كان له تأثيره فى مدى الالتزام أو عدم الالتزام بالنظم السائدة فى دولة الخلافة . ويضاف إلى ذلك الظروف التى عاشتها البلاد الإسلامية فى الفترات التى سيطر فيها الاستعمار الإنجليزى أو الفرنسى على تلك البلاد وحاول فيها تطبيق النظم والقوانين المعمول بها فى أوروبا حينذاك .

وبالنظر إلى مصر فإن من الملاحظ أن ارتباطها بدولة الخلافة قبل انهيارها بعدة عقود أو بأكثر من قرن من الزمان كان ارتباطاً يعد اسمياً أكثر منه فعلياً . ومن هنا كان لديها فرصة لتشكيل تشريعاتها طبقاً لظروف المجتمع وتطلعاته .

ولكن مصر وقعت أيضاً لعشرات السنين تحت سيطرة الاستعمار الفرنسى أولاً فى نهاية القرن الثامن عشر ثم بعد ذلك تحت سيطرة الاستعمار الإنجليزى وحاولت كل من فرنسا وانجلترا إبعاد التأثير الدينى عن التشريع ، وتم بالفعل فرض القوانين الأجنبية على مصر ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح هناك محاكم مختلطة ثم أنشئت بجانبها محاكم أهلية أو مدنية ، وتم فيهما تطبيق القوانين الأوروبية . وظلت المحاكم الشرعية التى تختص بالأحوال الشخصية

تمارس عملها حتى منتصف الخمسينات من القرن الماضى ، حيث تم إلغاؤها وإلغاء المحاكم المختلطة أيضاً وأدمجت المحاكم الشرعية فى المحاكم الأهلية المدنية على أن تتحول إلى دوائر خاصة ضمن المحاكم المدنية ويستمر العمل فيها طبقاً للشريعة الإسلامية فى كل ما يتعلق بالأحوال الشخصية .

وفى عام ١٩٢٣ م صدر فى مصر دستور مدنى يحقق مصلحة المجتمع ، ولكنه أُلغِى فيما بعد ، وتم إصدار دستور جديد عام ١٩٧١ م وهو الدستور القائم حتى اليوم . والملاحظ فى هذا الدستور أنه نص فى البند الثانى صراحة على أن مبادىء الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع . ولكن هذا تم تفسيره دستورياً وعملياً على أن ذلك لا يعنى إعادة النظر فى كل القوانين والتشريعات المدنية السابقة حتى تتفق مع هذه المادة المشار إليها . وإنما اقتصر الأمر على التشريعات الجديدة التى لا يُراعى فيها الأخذ المباشر من الشريعة وإنما ينبغى إصدارها بشرط عدم التعارض مع مباديء الشريعة . وهذا هو المعمول به حتى الآن .

وفى كل الأحوال ظلت التشريعات الخاصة بالأحوال الشخصية أو قوانين الأسرة فى الزواج والطلاق والميراث والحضانة والوصية والوقف .. إلخ تؤخذ مباشرة من الشريعة الإسلامية .

وفى السنوات الأخيرة تم إنشاء نوع جديد من المحاكم يطلق عليه محاكم الأسرة يختص بكل ما يتعلق بالأسرة ومنها بطبيعة الحال أمور الزواج والطلاق والحضانة والنفقة والميراث وما يتعلق بذلك كله .

والجدير بالذكر أن التشريعات فى الماضى والحاضر لم تحاول إطلاقاً أن تفرض قوانين الأحوال الشخصية على أصحاب الديانات الأخرى فى مصر

وبصفة خاصة المسيحيين منهم . فالطوائف الدينية عدا المسلمين يُطبق عليهم فيما يتصل بالأحوال الشخصية أو قوانين الأسرة ما ينبع من عقيدتهم الدينية . وهذا هو المعمول به حتى اليوم فى مصر .

وكان من تأثير الدين على التشريع فى مصر فى السنوات الأخيرة أن أصبح للمرأة الحق فى أن تطلب الطلاق من زوجها لا بسبب الضرر الذى لحق بها كما هو الحال فى القوانين المعمول بها ، وإنما بسبب أنها لا ترغب فى الاستمرار فى العلاقة الزوجية . وقد أباح لها القانون الجديد ذلك على أن ترد لزوجها ما أخذته منه من مهر وهدايا . وقبل أن تحكم المحكمة بالطلاق لابد من اتخاذ خطوة فى محاولة للصلح بين الزوجين فى فترة زمنية لا تزيد على ستة أشهر ، وذلك عن طريق مكاتب التسوية التى أنشئت بغرض حل النزاع بطريقة ودية . فإذا لم تفلح المحاولة حكم القاضى بالطلاق . ويطلق على هذا النوع من الطلاق اسم الخلع . وكل ذلك مستمد من الشريعة الإسلامية . ولكن هذا أيضاً لا ينطبق إلا على المسلمين . فالكنيسة المصرية ملتزمة بالتعاليم المسيحية فى هذا الصدد .

ومن الأمور التى تعبر عن الصلة بين التشريعات المدنية وتعاليم الشريعة الإسلامية نخص بالذكر أحكام الإعدام التى تصدرها المحاكم المدنية . فالقانون يلزم المحكمة أن تحول أوراق القضية إلى المفتى المختص بإصدار الفتاوى الشرعية . ويقوم المفتى بفحص أوراق القضية ثم يقول رأيه . وفى الغالب يتفق مع رأى المحكمة . وفى حالات قليلة يرى أن الأدلة غير كافية وأنه ينبغى أن تعيد المحكمة النظر فى القضية . وعلى الرغم من أن رأى المفتى استشارى وليس ملزماً للمحكمة فإنه فى حالة عدم الموافقة على

الحكم بالإعدام تقوم المحكمة فى العادة بإعادة بحث الأدلة الموجبة للحكم وقد يكون ذلك فى صالح المتهم .

ونظراً إلى أن مبادىء الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى للتشريع فإنه من المستحيل أن تصدر تشريعات فى مصر تبيح - على سبيل المثال - الشذوذ الجنسى أو زواج المثليين أو التبنى لأن ذلك مرفوض تماماً فى الشريعة الإسلامية ، وبالتالى يتعارض مع الدستور .

أما ما يتعلق بالمعاملات البنكية فإنه نظراً لأن علماء الدين الإسلامى مختلفون فى وجهات نظرهم بشأنها فإن البنوك فى مصر تعمل وفقاً للنظم المدنية المعمول بها فى سائر الدول ، ولكن تمشياً مع الرأى الآخر الذى يُوجب أن تكون هذه المعاملات البنكية متفقة مع الشريعة الإسلامية من حيث تحريم الربا فقد نشأت بجانب البنوك العامة بنوك يطلق عليها اسم البنوك الإسلامية ، وقد لجأت بعض البنوك المدنية القائمة إلى فتح أقسام أو فروع لها تسير وفق الشريعة الإسلامية ، وبالتالى تلبى رغبات المواطنين الراغبين فى هذا النوع من المعاملات .

وعندما نوقش مشروع القانون الخاص بنقل وزراعة الأعضاء فى البرلمان المصرى تم مناقشته قبل ذلك فى المؤسسة الدينية لبيان الرأى الدينى فيما تضمنه من مواد ، وكذلك الحال فى الإجهاض وغيره من أمور تمس مصلحة المجتمع . ومن المعلوم لدى العلماء المسلمين أن مصلحة المجتمع لها اعتبارها فى كل ما يتصل بتنظيم أمور المجتمع . وفى هذا الصدد هناك قاعدة تقول : **"حيثما توجد المصلحة فثم شرع الله "** .

وعندما شكل الإمام محمد مصطفى المراغى لجنة لتنظيم الأحوال الشخصية قال لأعضاء اللجنة : **"ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان ، وأنا لا يعوزنى بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الإسلامية يطابق ما وضعتم ، إن الشريعة الإسلامية فيها من السماحة والتوسعة ما يجعلنا نجد فى تفريعاتها وأحكامها فى القضايا المدنية والجنائية كل ما يفيدنا وينفعنا فى كل وقت ، وما يوافق رغائبنا وحاجاتنا فى كل حين، ونحن فى ذلك ملازمون لحدود شريعتنا"**[1] وهذا يعنى أن الشريعة تتفق دائماً مع كل ما فيه مصلحة محققة وفائدة تعود على المجتمع بصفة عامة .

والأمر الجدير بالذكر أن هناك توافقاً وتعاوناً بين المؤسسة الدينية والمؤسسة التشريعية فى مصر ، ويأتى ذلك انطلاقاً من مراعاة المصلحة التى تعود على المجتمع وتحقق له الأمن والاستقرار .

١ـ راجع : مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن للأستاذ على عبد العظيم . ج٢ ص١٩ القاهرة ١٩٧٩م .

مكانة القدس فى حياة المسلمين(*)

تُعد قضية القدس من القضايا التى تهم المسلمين جميعاً فى كل مكان وزمان ، فالقدس تشكل جزءاً جوهرياً من موروثات الأمة الإسلامية ومقدساتها ، وهى مرتبطة برحلة الإسراء . والقدس بمسجدها الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، وهذا يعنى أنها ليست قضية عربية تهم العرب فقط ، أو الفلسطينيين فقط ، وإنما تهم كل مسلم فى كل بقاع الأرض . ومن هنا فإنه لا يجوز اختزالها بجعلها مجرد قضية فلسطينية . فمسئولية تحريرها تقع على عاتق كل مسلم .

زيارة القدس :

وقد كانت لى وجهة نظر حول قضية القدس ذكرتها منذ اثنى عشر عاماً تقريباً[1] وتتلخص فى أننا يجب أن نتعامل مع قضية القدس على أنها قضية إسلامية ، ليس فقط على المستوى النظرى ، وإنما على المستوى العملى أيضاً . فكما يحج المسلمون إلى المسجد الحرام ويحرصون على زيارة المسجد النبوى ، عليهم أن يكثروا أيضاً من زيارة بيت المقدس حتى

---

* ألقيت هذه الكلمة فى بداية الندوة التى عقدها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية حول موضوع "القدس بين الحق الإسلامى والمزاعم الصهيونية" فى ٢٠٠٩/٤/٢١ .

١ـ كان ذلك في ندوة حول القدس عقدت بنقابة الصحفيين وحضرها فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر . وقداسة البابا شنودة الثالث بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية .

يُشعروا العالم بأن هذه القضية قضية إسلامية لا يمكن التهاون بشأنها أو التنازل عنها مهما طال الزمن.

وعندما طالبت بذلك اتُّهمت بأننى أدعو إلى التطبيع وإلى ترويج اقتصاد العدو ، على الرغم من أن المستفيدين سيكونون من المسلمين المحيطين ببيت المقدس ، ولو حدث هذا التدفق الإسلامى لزيارة القدس لكان فى ذلك خلق واقع جديد يؤكد الحق الإسلامى فى القدس .

وقد رحب بهذه الدعوة العديد من الإخوة الفلسطينيين على المستويين الرسمى والشعبى ، ولكن المزايدات الجوفاء والشعارات الرنانة الفارغة لاتدع للمنطق العقلى مكاناً ، ولا نعلم ما تخبئه الأيام للقدس الشريف من مستقبل .

الأسس الدينية :

والأسس الدينية التى نستند إليها فى الدعوة لزيارة القدس تتمثل فيما يلى :

١ ـ وردت الإشارة إلى المسجد الأقصى المبارك فى أول سورة الإسراء فى قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء : ١] .

والمسلمون فى كل مكان فى العالم يتعبدون بهذه الآية وغيرها من آيات القرآن الكريم . فالمسجد الأقصى أحد المقدسات الإسلامية ، وله فى حياتهم الدينية مكانة كبيرة لا جدال فيها .

٢ ـ ورد عن النبى ﷺ قوله : [**لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى**] [١] . وهذا يوضح لنا بجلاء مكانة المسجد الأقصى بين المقدسات الإسلامية التى تُشد الرحال إليها ، ويُطلب من المسلمين زيارتها .

٣ ـ كان من عادة المسلمين فى السابق أن يزور الحجاج إلى مكة المسجد الأقصى فى القدس فى طريق رحلتهم إلى الحج تلبية لما جاء فى الحديث النبوى المشار إليه .

٤ ـ فى السنة السادسة للهجرة أراد النبى عليه الصلاة والسلام أن يعتمر ومعه عشرة آلاف من المسلمين على الرغم من أن مكة كانت حينذاك فى يد كفار قريش ، وأن الأصنام كانت منصوبة حول الكعبة . فهل كان النبى ﷺ يريد أن يعترف بسيطرة المشركين على المسجد الحرام وبشرعية الأصنام المنصوبة حول الكعبة ؟

لقد أراد فقط أن يؤكد الحق الإسلامى فى زيارة المسجد الحرام والطواف حول الكعبة والسعى بين الصفا والمروة ، وفى ذلك أبلغ رد على من يعارضون زيارة المسجد الأقصى اليوم بحجة أنه تحت الاحتلال الصهيونى .

وكما رفض مشركو مكة السماح للمسلمين بأداء العمرة فى السنة السادسة للهجرة فإن من المتوقع أيضاً أن ترفض إسرائيل السماح بزيارة المسجد الأقصى لعشرات الآلاف من المسلمين سنوياً . وعندئذ يحق

١ـ متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (١١١٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٧٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

للمسلمين أن يتوجهوا إلى المجتمع الدولى ومنظمات حقوق الإنسان الدولية مسجلين مواقفهم واحتجاجهم على منعهم من أداء شعيرة دينية . وعلى المسلمين ألا يكتفوا بمجرد الاحتجاج ، بل عليهم أن يعملوا على إبقاء هذه القضية مطروحة للنقاش ، والحصول على دعم دولى للتوصل إلى قرارات تؤكد الحق الإسلامى فى القدس .

تطورات قضية القدس :

لقد مرت قضية القدس بحقب مختلفة كان أصعبها أثناء الاحتلال الصليبى للقدس قبل أن يستردها صلاح الدين الأيوبى بعد احتلال استمر قرابة قرن من الزمان . ويروى التاريخ أن الصليبيين عندما احتلوا المدينة قتلوا كل من كان فيها من المسلمين وكان عددهم يبلغ سبعين ألفاً ، حتى سالت الدماء أنهاراً فى الطرقات وغاصت فيها الخيول .

وقد حث بعض المسلمين السلطان صلاح الدين بعد أن استرد القدس أن يفعل بالصليبيين مثل ما فعلوا بالمسلمين ، ولكنه تأسى برسول الله ﷺ الذى قال لكفار مكة بعد فتحها : [**اذهبوا فأنتم الطلقاء**] ،[1] وعفا القائد صلاح الدين عنهم ، وأرسل طبيبه الخاص ليعالج أعدى أعدائه ، وفك أسر من لم يستطع دفع الفدية . فما دامت الحقوق قد استردت فلا حاجة إلى القتل أو التنكيل ، فالانتقام ليس من شيم الإسلام[2] .

١ـ أخرجه البيهقى فى معرفة السنن والآثار (حديث ٥٦٨٢) وأورده السهيلى فى (الروْض الأُنف) (١٧٠/٤) وابن هشام فى السيرة النبوية (٤١١/٢) . عن صفية بنت شيبة .

٢ـ راجع : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، الجزء الثانى ، ص ٧٨٠ – ٧٩٣ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٦م .

وتمر الأيام ويعاد احتلال أرض فلسطين حتى اليوم وهى قضية تنفرد بطول أمدها ، وهى القضية الوحيدة فى عالم اليوم التى ظلت أكثر من ستة عقود من الزمن دون حل على الرغم من حماس المجتمع الدولى لحل الكثير من القضايا الأخرى فى فترات قصيرة .

عقبات فى طريق الحل :

وكلما اقترب الأمل فى إيجاد حل لهذه القضية تتعقد المشكلات مرة أخرى سواء من خلال أطراف داخلية أو أطراف بعيدة عنا . وقد أتاح الرئيس الراحل أنور السادات فرصة ذهبية للفلسطينيين أيام المفاوضات مع إسرائيل التى انتهت بتوقيع اتفاقية (كامب ديفيد) ، ولكن جبهة الرفض ، التى كانت تسمى نفسها جبهة الصمود والتصدى آنذاك ، عطلت الجهود للتوصل إلى الحل ، وأصبحت الأرض الفلسطينية مرتعاً خصباً لإسرائيل لتقطيع أوصالها جزءاً جزءاً ، حتى إذا جاء الحل لم يجد الفلسطينيون أرضاً يتفاوضون عليها . وقد تحولت جبهة (الرفض) فى السنوات الأخيرة إلى جبهة الممانعة . ولله الأمر من قبل ومن بعد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قضية الفرص الضائعة :

وهكذا تم اختزال قضية القدس وجعلناها مجرد قضية فلسطينية ، يتم التعامل معها مثل أى مدينة أخرى كغزة أو الخليل أو خان يونس . وهذا

الاختزال سحب عنها المدد الإسلامى الذى كان يمكن أن يكون أقوى سند وأمضى سلاح فى مواجهة العدو المغتصب .

أما الإخوة الفلسطينيون ـ أصحاب القضية الذين كان يُنتظر منهم أن يلتفوا جميعاً حول هدف واحد وهو إنقاذ القدس وبقية الأراضى الفلسطينية ـ فإنهم مشغولون بخلافاتهم السياسية والإيديولوجية والصراعات حول السلطة . والعقل والمنطق يُحتمان تأجيل هذه الصراعات إلى ما بعد تحرير القدس وسائر الأراضى الفلسطينية .

لقد آن الأوان لأن نكف عن ترديد الشعارات الجوفاء والمتاجرة بمقدسات الأمة ، فقضية القدس بصفة خاصة ، والقضية الفلسطينية بصفة عامة أصبحت ـ للأسف الشديد ـ قضية الفرص الضائعة .

ضرورة التضامن :

إن الألم والحزن يعتصران قلب كل مسلم غيور على مقدساته ، والمسلمون اليوم فى أشد الحاجة أكثر من أى وقت مضى إلى تجميع صفوفهم وتوحيد جهودهم والالتفاف حول قضاياهم المصيرية وفى مقدمتها قضية القدس حتى يعلم العالم كله منزلة القدس فى قلوب المسلمين . والقرآن الكريم ينادى المسلمين بالاعتصام بحبل الله ، والتعاون فيما بينهم ، وطرح الخلافات والنزاعات وراء ظهورهم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ** ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

لقد أصبحت الأمة الإسلامية فى وضع لا تحسد عليه ، ولا يجوز لها أن تستكين وتنعى حظها ، فهذا لن يرد الحقوق المسلوبة . إنها فى حاجة إلى صحوة جديدة حتى يمكن أن تعود مرة أخرى قوية ومتحدة فى عالم لا يحترم إلا القوة ، ولدينا العديد من أسباب القوة التى لا نوظفها ـ للأسف الشديد ـ لخدمة قضايانا المصيرية .

لقد كتب الله العزة للمؤمنين فى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

وهذه العزة لها ضريبة مستحقة على المسلمين . فنصر الله لا يُمنح مجاناً للكسالى والمتخاذلين والمتاجرين بالشعارات ، وإنما يمنح للعاملين بجد وإخلاص من أجل بلوغ الأهداف المرجوة وفى هذا السياق يقول الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ ﴾ [النور : ٥٥] .

إن هذه الوعود الإلهية الثلاثة غير متحققة للمسلمين فى عالم اليوم ، فقد اختزلنا الدين واختزلنا عمل الصالحات الذى نصت عليه هذه الآية فى العبادات والشكليات وصرنا نقول : لنا الآخرة ولغيرنا الدنيا ، وهو أمر مغلوط ، فالدنيا مزرعة للآخرة ، والعمل الصالح يُقصد به كل عمل يقوم به المرء فى هذه الحياة سواء كان هذا العمل دينياً أم دنيوياً طالما قصد به المرء وجه

الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم ، فهو عمل صالح وهو عبادة لله تعالى . فإذا ساد هذا الفهم استقامت الأمور . فاختزال الصالحات فى العبادات ظلم كما هو الحال فى اختزال القدس واعتبارها قضية فلسطينية فحسب .

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

٩ الأمة الإسلامية فى مفترق الطرق (*)

يسعدني كل السعادة أن تتاح لي الفرصة اليوم لهذا اللقاء والتحدث إلى حضراتكم في محراب هذه الجامعة التى من شأنها تثقيف العقول وصقل المواهب وتخريج أجيال من العلماء والباحثين والمفكرين فى جميع التخصصات ليسهموا في بناء بلادهم ويشاركوا بعقولهم وخبراتهم فى نهضتها والارتقاء بها

والواقع أنني عندما فكرت في اختيار موضوع لمحاضرة اليوم قفزت إلى ذهني للوهلة الأولى صورة المفكر الجزائري الراحل مالك بن نبى ، ابن هذه الأمة الجزائرية المجاهدة المعطاءة. فقد كان مالك بن نبى- رحمه الله- مهموماً بمشكلات أمته الإسلامية . وكانت كتاباته الثرية في سلسلة مؤلفاته حول مشكلات الحضارة في جوانبها المتعددة بمثابة شعلة ضياء تشق ظلام ليل حالك السواد .

واتصالاً بالقضايا والمشكلات التى كانت محل اهتمام مالك بن نبى أردت أن يكون حديثي إليكم حول أوضاع الأمة الإسلامية فى عالم اليوم ، واخترت أن يكون عنوان المحاضرة هو : " الأمة الإسلامية فى مفترق الطرق"، وذلك في محاولة متواضعة لإلقاء بعض الضوء على ما يعترض طريق الأمة الإسلامية من عقبات تعطل مسيرتها نحو النهوض والتقدم.

---

* محاضرة ألقيت فى جامعة الجزائر فى ٢١ يناير ٢٠٠٨م .

تمهيد :

وعندما يكون الحديث عن نهضة الأمة الإسلامية وتقدمها وارتقائها فإن الأمر يتطلب منا أن نحاول التعرف أولاً على أهم الأسباب التي أدت بهذه الأمة إلى التراجع الحضاري الراهن.

وفي ضوء ذلك يمكن البحث عن أفضل السبل للخروج من هذه الأوضاع المتردية التي تعيشها الأمة منذ عدة قرون.

وحقيقة الأمر أن أى مراقب محايد يقوم بإجراء بحث موضوعي لأحوال عالمنا الإسلامي ستعتريه الدهشة وتنتابه الحيرة لما آلت إليه أوضاع هذه الأمة ذات الحضارة العريقة، الأمر الذى دعا أحد المفكرين المسلمين المعاصرين إلى وصف الأمة الإسلامية في عالمنا المعاصر بأنها: "أمة حائرة في عالم محير". ويعجب المرء أشد العجب ويتساءل: كيف يحدث ذلك لأمة ركز كتابها المقدس منذ أول لحظة على الأمر بالقراءة، والإشادة بالعلم، وبالقلم الذي هو وسيلة تدوين العلم وبالإنسان حامل لواء هذا العلم؟

إن مشكلات أمتنا الإسلامية كثيرة ومتنوعة، وفي مقدمة هذه المشكلات أو على رأسها تأتي المشكلة الحضارية، ولا نعدو قول الحق إذا قلنا إن حل هذه المشكلة يعد المفتاح الحقيقي لحل بقية المشكلات. والقرآن الكريم يعطينا في هذا الصدد إشارات هادية تضيء لنا الطريق. فلم يكن من قبيل المصادفة أن تكون بداية الوحي القرآني على محمد صلى الله عليه وسلم معنية بالدرجة الأولى بلفت الأنظار والعقول إلى مفاتيح الحضارة المتمثلة في العلم والبحث والدراسة لآيات الله في الكون وفي الإنسان.

وتأكيداً لذلك وصف القرآن الكريم العلماء بأنهم أخشى الناس لله، لأنهم الذين يستطيعون أن يدركوا أسرار الخلق وقوانين الكون وجلال الخالق. ومن هنا جعل الإسلام مداد العلماء مساوياً لدماء الشهداء.

وإذا بحثنا عن أسباب التدهور القائم. والمتمثل في التخلف الحضاري الذي لا تخطئه العين في عالمنا الإسلامي. فإننا سنجد أنفسنا أمام كم هائل من الأسباب على جميع المستويات الدينية والعلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها.

وحتى لا تتشعب بنا السبل في هذا المقام الذي لا يحتمل الإسهاب في القول نود أن نركز على أهم هذه الأسباب التي نعتقد أن بقية الأسباب الأخرى تتعلق بها أو ترجع إليها بشكل أو بآخر.

ومن أبرز هذه الأسباب في نظرنا ما يلي:

١ـ إهمال العلم والحضارة:

ليس هناك من شك في أن إهمال المسلمين للعلم والحضارة يتصدر قائمة الأسباب التي أدت إلى التراجع الحضاري في عالمنا الإسلامي، حيث لم يعد العلم ولا التقدم الحضاري يشكل أولوية في قاموس الأمة الإسلامية. وأبرز مثال على ذلك يتجلى في ارتفاع نسبة الأمية في العالم الإسلامي، حيث تزيد ـ طبقاً للبيانات الصادرة عن الايسيسكو ـ على ٤٦٪ ، أى: ما يقرب من نصف عدد المسلمين في العالم، في حين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان منذ أربعة عشر قرناً من الزمان يفرج عن الأسير من غزوة بدر إذا علّم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة.

ولكن المسلمين قد تخلوا عن مفاتيح الحضارة منذ بضعة قرون وتركوها لغيرهم، واكتفوا بقشرة حضارية مستوردة يراها المرء في أنحاء شتى من العالم الإسلامي. ويعتقد البعض أننا بذلك لا نقل تحضراً عن العالم المتقدم. ولكن الحقيقة المرَّة هي أننا نستخدم كل منتجات الحضارة الحديثة بوصفنا مستهلكين أو زبائن دائمين في "سوبر ماركت" الآخرين . ونعتقد أننا بذلك متقدمون .

ولكن الأمر الذى ينبغي ألا يغيب عن الأذهان أن الحضارة القائمة إذا باعتنا منتجاتها فلا يمكن أن تبيعنا روحها وجوهرها القائم على العلم والإبداع والابتكار، وكل المعاني التى لا تلمسها الأنامل. فعملية التحضر عملية منبعثة من الداخل أساساً، وهذا يعني أن هناك شيئاً ذاتياً أساسياً يجب أن يقود عملية التحضر. وعدم مشاركة المسلمين في صنع الحضارة الحديثة يعني أنهم قد تخلوا عن مسئوليتهم في عمارة الأرض وتركوها لغيرهم، وهي تلك المهمة التى أكدها القرآن الكريم.

٢ـ اختزال الإسلام في الشعائر:

واهتمامنا بالشكل الحضارى بعيداً عن الجوهر جعلنا أيضاً نختزل ديننا العظيم فى مجرد أداء الشعائر الدينية المعروفة والاهتمام المفرط بالشكليات بعيداً عن جوهر الدين ومقاصده . وأصبح التدين الشكلى هو الأساس ولا يهم ما وراء ذلك . ألسنا نصلى ونصوم ونزكى ونحُج ؟ ألا يعنى ذلك أن الإسلام بخير ؟

إن الواقع المؤلم يقول بغير ذلك تماماً . فالمهم ليس هو الشكل الذى لايعيره الإسلام كبير اهتمام . وهذا ما يؤكده حديث النبى ﷺ : **"إن الله لاينظر إلى صوركم وأشكالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"** [1]. إن الأمر المهم إذن هو فى التحول الداخلى الذى ينبغى أن يحدث نتيجة لأداء الشعائر الدينية ، والذى ينبغى أن يظهر في صورة إيجابية فى سلوك المسلمين متمثلاً فى القيم الإسلامية الدافعة إلى التقدم والرقى وعلى رأسها العلم والعمل من أجل تحقيق الخير لكل الناس . وقد وضع القرآن الكريم أمامنا قانوناً ثابتاً لايتغير فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد : ١١] .

وهذا يدل على أن تغيير أحوالنا لن يسقط علينا من السماء ، فزمن المعجزات قد انتهى ، وإنما يتحقق التغيير إلى الأفضل بعقولنا وتفكيرنا وأعمالنا .

وقد أدت هذه الظواهر السلبية فى سلوك المسلمين إلى إهمال دور العقل الإنسانى ، والاهتمام المفرط بالغيبيات التى استأثر الله وحده بعلمها . وانتشرت بين عامة المسلمين الكثير من الخرافات والأوهام التى لاأساس لها فى صحيح الدين أو العلم . وأهملنا الاهتمام بإعمار الدنيا التى نعيش فيها والتى خلقها الله لنا لنقوم بتعميرها بالعلم ونشر الخير فى أرجائها ، واعتقد الكثيرون منا أن الآخرين إذا فازوا بالدنيا فقد ادخر الله

١ـ رواه الإمام مسلم فى صحيحه : ٣ / ١٩٨٧ حديث رقم (٢٥٦٤) .

لنا الآخرة . فلماذا –إذن– نهتم بالدنيا وبالعلم والحضارة ؟ إن هذه أمور لا قيمة لها ، ويكفى أننا نؤدى شعائرنا لنفوز بالآخرة .

وهذا فهم خاطئ لجوهر الإسلام الذى بيَّن لنا أن الله قد استخلف الإنسان فى الأرض وكلَّفه بعمارتها . ولما كانت عمارتها لا تتم إلا بالعلم . فقد زود الله آدم بمفاتيح العلم قبل أن يهبطه إلى الأرض ، ومنحه الحرية حتى يكون قادراً على تحمل مسئوليته التى أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال .

٣ـ ظواهر التشدد والتطرف :

وقد نتج عن هذه التوجهات البعيدة عن مقاصد الدين الحقيقية سبب آخر تجلَّى فى ظهور الكثير من أشكال التشدد والتطرف فى فهم الدين وتعاليمه . وأصبح التشدد فى أمور الدين ، وبصفة خاصة فى الأمور الهامشية ، علامة واضحة على التدين .

وقد ترتب على هذا التشدد فى أمور الدين على هذا النحو تحول سلبى فى السلوك ، حيث حلَّت الفظاظة والغلظة والعنف فى التعامل محل الرحمة التى هى السمة الأساسية للإسلام . وانتشرت تهم الكفر والتحلل من الدين ضد من يُعتقد أنهم متساهلون فى أمور الدين ، أو من لهم وجهة نظر مخالفة لهؤلاء المتشددين . وافتقدنا التسامح الإسلامى فى مجتمعاتنا الإسلامية ، هذا التسامح الذى يعبر عنه الشيخ محمد عبده بقوله : "لقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من

قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر" [1]. وقد نُقِل عن الإمام مالك قول يحمل نفس هذا المعنى .

ويذهب القرآن الكريم إلى أبعد من ذلك حين يأمرنا ألا نسب المشركين حتى لايتجرءوا على الذات الإلهية ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] . ولكن العقول المتحجرة والبصائر المتبلدة أصبحت تطلق كلمة الكفر لأتفه الأسباب .

وقد نسى هؤلاء المتشددون والمشددون على أنفسهم وعلى الآخرين أن الإسلام دين يسر لا عسر وأن الله سبحانه يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وأن الله وحده هو الذى سوف يفصل بين الناس يوم القيامة ، كما نسى هؤلاء أيضاً أن الله سبحانه وتعالى – الذى وسعت رحمته كل شيء – قد فتح باب الأمل على مصراعيه أمام كل الناس فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

وغنى عن البيان أن نشير فى هذا الصدد إلى أن هذا التيار المتشدد كان وراء ظهور موجات الغلو والتطرف والتعصب والإرهاب التى جلبت على الأمة الإسلامية عواقب وخيمة .

١ـ انظر هامش ١ ص ١١٩ من هذا الكتاب .

٤ـ التشرذم وفقدان التضامن :

وقد كان لاهتمام المسلمين بالشكل على المستوى الدينى والحضارى أكثر من اهتمامهم بالجوهر ، وانتشار تيارات التطرف والتشدد فى مجتمعاتهم – كان لذلك أثر سلبى على العلاقات بين شعوب الأمة على جميع المستويات ، وبصفة خاصة على المستوى السياسى والاقتصادى . فالتشرذم قد أصبح هو السمة الغالبة على علاقات شعوب الأمة الإسلامية فيما بينها ، وبالتالى أصبح التضامن الإسلامى مجرد شعار نردده فى المناسبات ، ولكنه شعار يخلو من أى مضمون .

ويعبر ذلك بشكل واضح عن حال المنظمات الإسلامية التى تعد انعكاساً لأوضاع الأمة وصورة لأحوالها . ويمكن للمرء أن يتعرف على ذلك عن طريق ذكر مثال واحد من بين أمثلة كثيرة ، فحجم التجارة البينية بين دول العالم الإسلامى لايتجاوز نسبة (٨٪) من حجم تجارة هذه الدول مع بقية دول العالم . والتعاون فى بقية المجالات الأخرى ليس أسعد حظاً من ذلك .

ومن هنا فإنه ليس بالأمر المستغرب أن نرى العالم الإسلامى – الذى يشكل سكانه أكثر من خمس سكان العالم ـ قد أصبح مسرحاً مباحاً للصراعات المحلية والعالمية . ومطمعاً للقوى الكبرى ، ولقمة سائغة فى فم أعداء الأمة . وأصبح المسلمون فى عالم اليوم أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام .

وإن إلقاء نظرة على المشكلات الكبرى والصراعات المتنامية والأزمات الخانقة التى تحيط بعالمنا المعاصر تبين لنا أن عالمنا الإسلامى يحظى منها

بنصيب الأسد . فمعظم مشكلات العالم اليوم تجد لها مرتعاً خصباً فى قلب العالم الإسلامى ، وهذه حقيقة يعرفها القاصى والدانى ، والأمثلة على ذلك كثيرة ومن أهمها قضايا فلسطين والعراق وأفغانستان والصومال والسودان ولبنان وباكستان وغيرها . وذلك بالإضافة إلى مشكلات أخرى بين بعض البلاد الإسلامية ذاتها فى مناطق مختلفة من العالم ، ناهيك عن العديد من مشكلات الأقليات الإسلامية فى مختلف القارات .

ولاشك فى أن انشغال عالمنا الإسلامى بمشكلاته – وبعضها مشكلات تستعصى على الحل مثل قضية فلسطين – من شأنه أن يستنزف جهود الأمة ومواردها ، ويعطل بالتالى جهود التنمية فيها لتظل فى عداد الدول المتخلفة التى يطلق عليها تجملاً وصف الدول النامية .

وقد أدت هذه الأسباب وغيرها كثير إلى هذه الأوضاع الحضارية المتردية التى نعيشها فى عالمنا الإسلامى . ومن هنا فإننا إذا أردنا أن نلخص مشاكل أمتنا الإسلامية فى عالم اليوم فى عبارة واحدة فيمكن القول بأن مشكلتنا الكبرى هى مشكلة حضارية بالدرجة الأولى .

٥ـ غياب النقد الذاتى :

من الأمور التى أصبحت شائعة فى عالمنا الإسلامى أن الكثيرين يميلون إلى تعليق كل مشكلات المسلمين على شماعة الغير الذى نعتقد – صواباً أو خطأ ـ أنه يتربص بنا ، ويخطط لحونا كمسلمين من خريطة العالم . ويسترسل بنا التفكير ويمتد بنا الخيال للحديث عن تفاصيل التخطيط

الخبيث من جانب الآخرين لنهب خيرات العالم الإسلامى ، وتدمير اقتصاده وتجويعه ، ومحاولات فرض القيم والمعايير الغربية على الشعوب الإسلامية ... إلخ .

ولا ينسى الكثيرون – فى هذا الصدد – الحديث عن مثالب المجتمعات الغربية وتدهورها الأخلاقى ، وانحلالها الاجتماعى ، وتخلفها الروحى ، وفى المقابل يحلو لنا الحديث عما لدينا من قيم روحية وأخلاقية سامية تقينا من شرور هذه المجتمعات وتجعلنا أكثر رقياً فى هذا الجانب . فإذا كانت المجتمعات الغربية قد قطعت أشواطاً كبيرة فى سلم التقدم المادى فنحن أكثر تقدماً ورقياً على المستوى الروحى والأخلاقى من الغرب المتبجح بصناعاته وابتكاراته المادية . إننا إذن فى مجتمعاتنا الإسلامية بخير والحمد لله .

وفى خضم تحمسنا لنقد الآخر وفضح عيوبه وانحرافاته وظلمه وقهره للشعوب وتفسُّخه على المستوى الاجتماعى وتحلله على المستوى الأخلاقى والدينى ، ننسى أننا بذلك لا نسيء إلى الآخر ، بل نسيء إلى أنفسنا ، لأننا بذلك نتجاهل عيوبنا ونتغاضى عن نقد أنفسنا .

فسهام النقد التى فى جعبتنا قد تم توجيهها إلى الآخر ، ولم يعد لدينا سهم واحد فى هذه الجعبة يمكن أن نوجهه إلى أنفسنا . وبذلك تتراكم مشكلاتنا يوماً بعد يوم دون أن نبذل الجهد المناسب لإيجاد الحلول الملائمة لها . فالغرب لنا بالمرصاد يجهض كل محاولاتنا ويمسك بيده كل خيوط اللعبة المحكمة الماكرة .

وهذا النمط من التفكير يريح الكثيرين من أبناء الأمة الإسلامية . فقد أدينا بذلك واجبنا فى تعرية الآخر وكشف مؤامراته . وبالتالى فإن تخلفنا ـ إذا كان هناك تخلف ـ سببه الآخر . وجماهير الأمة من كثرة تعودهم على سماع ذلك قانعون راضون يصفقون طويلاً لمن يضرب على هذا الوتر ويخاطب عواطفهم وانفعالاتهم .

أما النقد الذاتى ، أما نصيبنا أو إسهامنا – نحن المسلمين – فى التخلف القائم ، أما قعودنا عن فعل أى شيء إيجابى لتغيير الأوضاع المتخلفة فى العالم الإسلامى ، فإن هذه الأمور غير واردة فى الحسبان . فنحن بخير والحمد لله . وهكذا نقوم بإرادتنا – دون أن يرغمنا أحد على ذلك – بتغييب وعى جماهير الأمة .

إن النقد الذاتى هو الخطوة الأولى نحو الوعى بعيوبنا وأدوائنا وما نتحمله من مسؤولية لما يعانيه هذا العالم الإسلامى من التخلف .. والوعى بأننا نتحدث كثيراً ولا نفعل شيئاً إلا أقل القليل .. الوعى بأن هناك واقعاً متخلفاً فى عالمنا الإسلامى يجب أن يتغير .. الوعى بأننا – نحن المسلمين – نسهم بشكل أو بآخر ، بقصد أو بغير قصد ، بحسن نية أو بسوء نية ، فى تخلف مجتمعاتنا الإسلامية .

إن الآخر ينقد نفسه باستمرار ، وكثير من نقدنا له صادر فى الأصل عنه ، وجدير بنا أن نحذو حذوه فى النقد الذاتى . فنحن فى عالمنا الإسلامى فى أشد الحاجة إلى تعديل مواقفنا ، وتطوير أسلوب تفكيرنا ، وتغيير سلوكنا ، والتعرف على الحقائق بطريقة موضوعية بعيدة عن أى

ميول عاطفية أو انفعالات وقتية ، وهذه كلها أمور تتطلب المزيد من النقد الذاتى .

ومن جانب آخر نحن فى أشد الحاجة أيضاً إلى غرس القيم الدافعة إلى تقدم المجتمع فى نفوس أبنائنا . وهذا أمر يقتضى تغيير المفاهيم وتغيير العقليات حتى تكون قادرة على تحمل تبعات النقد الذاتى . إن على المسلمين فى عالمنا المعاصر أن يدركوا أنهم فى سباق مع الزمن وأنه لم يعد لديهم وقت لإضاعته فى صرف الانتباه عن العيوب والأخطاء وتعليق ذلك كله على إحدى الشماعات التى تريحنا .

٦ـ النتائج الخارجية للتراجع الحضارى :

وإذا كانت هذه الأسباب وغيرها قد أدت إلى التراجع الحضارى القائم فى عالمنا الإسلامى فإن هذه الأوضاع الداخلية كان لها أثرها على صورة العالم الإسلامى فى الخارج . فنحن لا نعيش وحدنا فى هذا العالم ، ولا نستطيع أن نعزل أنفسنا عما يدرر حولنا فى عالم اليوم من متغيرات . وتيار العولمة المعاصر تيار جارف ، وما يحمله من سلبيات أو إيجابيات أو فرص ومخاطر على المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية يؤثر علينا بشكل أو بآخر أردنا أم لم نرد . ولا مفر أمامنا من مواجهة تحديات العولمة .

فالعولمة السياسية تتحدى أمتنا بما تحمله من شعارات الديمقراطية والتعددية السياسية وحقوق الإنسان ، والعولمة الاقتصادية تتحداها بما تحمله من إزالة الحواجز أمام تدفقات التجارة والسلع والخدمات والمال والبرامج ، وبما تحمله أيضاً من تكتلات اقتصادية كبرى وشركات عملاقة

متعددة الجنسيات ومؤسسات مالية دولية . وهذا كله جعل البعض فى الشرق وفى الغرب يصف هذه العولمة بأنها عولمة متوحشة .

أما العولمة الثقافية فإنها تتحدى الأمة بفرض ثقافتها وقيمها وعاداتها الاجتماعية ، الأمر الذى يهدد ثقافتنا بالذوبان فى ثقافة الأقوى ويطمس بالتالى هويتنا الإسلامية وشخصيتنا الحضارية .

وهذا كله يعنى أن أمتنا أصبحت محاصرة من كل جانب ، وقد تكالبت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها -كما ورد فى الحديث الشريف- لا بسبب قلة أعداد المسلمين ، بل بسبب كثرتهم العددية الضعيفة التى وصفها النبى فى الحديث المشار إليه بغثاء السيل[1] .

وقد شجعت هذه الأوضاع الآخرين للترويج لما يسمى بالفوضى الخلاقة فى عالمنا الإسلامى ، وهذه الفوضى الخلاقة ليست إلا دعوة لإثارة الفتن والعصبيات والانقسامات فى أوساط المسلمين . وهكذا أصبح الآخرون يتحكمون وحدهم فى مصائر الأمة ويقررون ما يشاءون فى غيبة المسلمين ، الأمر الذى ينطبق عليه قول الشاعر العربى القديم جرير بن الخطفى :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأمرون وهم شهود

إن هناك إذن تحديات كبرى داخلية وخارجية تواجه أمتنا الإسلامية ولا خيار أمامها إلا قبول التحدى ومواجهة الأخطار إذا أرادت أن تحتل مكانها اللائق بها فى العالم المعاصر .

١- أخرجه أبو داود فى سننه (حديث ٣٧٤٥) من حديث ثوبان وتمامه أن رسول الله ﷺ قال : "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل" .

٧ـ سبيل الخلاص :

وإذا كنا قد حاولنا أن نشخص – من وجهة نظرنا – أهم أدواء الأمة الإسلامية فى عالمنا المعاصر ، فإن السؤال الذى يفرض نفسه فى هذا المقام هو : ما السبيل إلى إنقاذ الأمة من هذه الأزمة الخانقة ؟

يقول خصوم الإسلام : إن هذا الدين هو سبب تخلف المسلمين ، وما دام المسلمون متمسكين بدينهم فلن تقوم لهم قائمة ، ويقدم هؤلاء النصح للمسلمين بأن يفصلوا فصلاً تاماً بين الدين والحياة ، ويبعدوا الدين تماماً عن التدخل فى أمور الدنيا ، ويتبعوا فى هذا الصدد النموذج الغربى فى تهميش الدين ، هذا النموذج الذى أخذ بيد الغرب إلى الأمام ، وجعله اليوم فى مقدمة دول العالم حضارة ورُقياً .

وقد يكون الأخذ بالنموذج الغربى حتمياً فى حالة ما إذا لم يكن لدى المسلمين خيارات أخرى تستند إلى ما لديهم من تراث دينى وحضارى عريق .

وفى هذا المقام نود أن نؤكد أن الموقف الإسلامى من الحضارات الأخرى موقف واضح لا لبس فيه ، فالإسلام لا يمنع أتباعه من الاستفادة من تجارب الآخرين وعلومهم وخبراتهم .

" فالحكمة – كما جاء فى الحديث الشريف – ضالَّة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها "[1]، وليس هناك من حرج على المسلمين فى الأخذ

١ـ أخرجه الترمذى فى سننه (حديث ٢٦١١) وابن ماجه فى سننه (٤١٥٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

بكل ما هو مفيد لدى الآخرين . بل إن الفيلسوف العظيم ابن رشد قد جعل من الاطلاع على ما لدى الآخرين من علوم ومعارف واجباً شرعياً ، ولكنه أوصانا بأن تكون لنا فى ذلك نظرة نقدية تميز بين النافع والضار .

وفى ذلك يقول : " ننظر فى الذى قالوه من ذلك ، وما أثبتوه فى كتبهم فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبَّهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم "[1].

ويأتى هذا الموقف التفاعلى مع الحضارات الأخرى انطلاقاً من الإيمان الراسخ بأن التراث الإنسانى ـ الذى هو ملك للإنسانية كلها – يعتمد على الأخذ والعطاء ، وأنه لا توجد أمة عريقة فى التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث .

وهذا يبين لنا أن العلاقة بين الأمم والشعوب تقوم فى الأصل على أساس من التفاعل المثمر وتبادل المنافع والخبرات وليس على أساس من التجاهل أو التصادم . وتلك هى سنة الحياة التى يؤكدها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

والتعارف هو الخطوة الأولى نحو التفاهم المشترك والتعاون البنَّاء فى كل ما من شأنه أن يعود بالخير على الجميع . وتأسيساً على هذا الموقف يتضح لنا أن الإسلام يرفض ما يسمى بصدام الحضارات . ويدعو فى المقابل إلى الحوار بين الأديان والحضارات فى إطار من الندية والتسامح والاحترام

١ـ فصل المقال لابن رشد ، ص ١٧ (ضمن كتاب فلسفة ابن رشد) بيروت ١٩٨٢ .

المتبادل ، وذلك من منطلق أن الجميع متساوون فى الإنسانية لا فضل لأحد على آخر إلا بما يقدمه من خير للناس .

وإذا استقامت العلاقات بين عالمنا الإسلامى والشعوب الأخرى على هذا النحو فإن ذلك من شأنه أن يغرس بذور الثقة على كلا الجانبين ويزيل هواجس الخوف لدى كل طرف من الطرف الآخر . وبذلك تكون الظروف مهيأة للتعاون معاً فى تقدم الحياة ورُقيها . وهذا يصب فى النهاية في مصلحة الأمة الإسلامية وتقدم شعوبها .

ولسنا نشك فى أن عقلاء الأمة الإسلامية يريدون الارتقاء بحضارتها ، ويريدون أن تكون الأمة مشاركة ومؤثرة فى الحضارة الإنسانية حتى لايكون المسلمون مجرد مستقبلين أو مقلدين أو مستهلكين . ولكن النوايا وحدها لا تصنع حضارة ، ولا تغير من الواقع شيئاً . ومن أجل ذلك فإننا فى عالمنا الإسلامى فى أشد الحاجة إلى ثقافة جديدة هى ثقافة التغيير التى تستطيع أن تحول النوايا والأمنيات إلى واقع ملموس .

والملاحظ أن ثقافة الأمة فى الأعم الأغلب صارت ثقافة سكونية منذ عدة قرون ، تعتمد على الحفظ والتلقين وتشجع على التقليد وليس على الإبداع والابتكار . والمطلوب بإلحاح هو ثقافة تحترم العقل وتمارس الفكر وتنمى شخصية الفرد وتحفزه إلى العمل المنتج والفكر المبدع .

ولم يكن ذلك بالأمر الغريب على الحضارة الإسلامية . فقد عرفت هذه الحضارة هذا اللون من الثقافة الخلاقة التى أبرزت المواهب العلمية والأدبية والفلسفية وغيرها فى كل مجالات العلوم والمعارف ، وازدانت الحضارة

الإسلامية بالأعلام الكبار الذين كان لهم عطاؤهم المتميز الذى أثرى الحياة الثقافية فى العالم الإسلامى . وكان التجديد هو السمة الغالبة فى الحضارة الإسلامية ، وتميزت الحياة الثقافية الإسلامية على مدى ما يقرب من ثمانية قرون بالحيوية والإبداع ، باستثناء بعض فترات شابتها عوامل الجمود والانغلاق .

ونحن إذ نتذكر ذلك اليوم فليس من غرضنا مجرد التغنى بالأمجاد أو اجترار ذكريات عزيزة علينا ، كما أنه ليس من غرضنا أيضاً أن نبكى على الأطلال ، فذلك كله شأن العاجزين . ولكن المقصود من الإشارة إلى ذلك كله هو استعادة الثقة بأنفسنا وبقدراتنا ، والاستفادة من دروس الماضى . فالذكرى – كما يقول القرآن الكريم – تنفع المؤمنين .

إن المسلمين فى حاجة ماسة إلى التسلح بالإرادة القوية والتزود بالعزيمة الصادقة ، والتمسك بالأمل فى مستقبل مشرق وفى غد أفضل ، والاقتناع بأنهم يقفون على أرض صلبة ، وأنهم فى انطلاقتهم الحضارية الجديدة لا ينطلقون من فراغ ، وإنما يعتمدون على رصيد حضارى ضخم أثبت التاريخ أنه كان نموذجاً رائعاً قدم للإنسانية عطاءً حضارياً بلا حدود .

ولكن هذا يتطلب منا فى العصر الحاضر قراءة جديدة للإسلام لنعيد النظر فى فهمنا لهذا الدين الذى لا يتعرض فقط لظلم خصومه وإنما يعانى أيضاً من جهل أبنائه ، الذين ذهب فريق منهم إلى افتعال خصومة بين الإسلام والعلم ، وبين الإسلام والعقل ، وبين الإسلام والتجديد ، الأمر الذى أدى إلى إغلاق باب الاجتهاد والتقليل من شأن

المرأة ودورها فى المجتمع ، وأصبح الدين على أيديهم يشكل قائمة طويلة من المحرمات والمحظورات ، وصار ديناً جامداً منغلقاً رافضاً لأى تطور إيجابى فى المجتمع .

والحق أن العيب فينا نحن المسلمين وليس فى الإسلام . ومن هنا كان رد المفكر الإسلامى الراحل مالك بن نبى على تهمة إرجاع تخلف المسلمين إلى الإسلام بقوله : " إن التخلف الذى تعانيه الأمة الإسلامية اليوم ليس سببه الإسلام كما يُشاع ، وإنما هو عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخلّيهم عنه لا لتمسُّكهم به كما يظن بعض الجاهلين " .

وحقيقة الأمر أن الإسلام كان أول دين دعا إلى الحضارة ، بمعنى التقدم الروحى والمادى للأفراد والجماعات ، وطالب باتخاذ كل الأسباب المؤدية إليها ، وجعل منها فريضة دينية وواجباً إسلامياً لا يجوز التهاون فيه ، ولا يقل شأناً عن فرائض الإسلام الأخرى . ولكن الفهم القاصر للإسلام لدى الكثيرين من المسلمين جعل من الحضارة أمراً هامشياً . فنحن نقول دائماً إن الإسلام عقيدة وشريعة ، وهذا حق . ولكن ذلك ليس كل الحقيقة الإسلامية . فالإسلام بالإضافة إلى ذلك أخلاق وحضارة . أما أنه أخلاق فإن ذلك ما جاء على لسان النبي ﷺ فى قوله : " **إنما بُعثتُ لأتَمِّم مكَارِم الأخلاق** " . وأما أن الإسلام بالإضافة إلى ذلك حضارة فهذا يعتمد على أمر إلهى فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ [هود : ٦١] .

أى : طلب منكم عمارتها بالمعنى الشامل لهذا المفهوم مادياً ومعنوياً ، وبالتعبير الحديث طلب منا صنع الحضارة فى الأرض . وهذا العنصر الذى يعنى أن الإسلام حضارة هو الفريضة الغائبة لدى المسلمين فى عالم اليوم . ومن هنا فإنهم إذا أرادوا أن تقوم لهم قائمة مرة أخرى ، وإذا أرادوا أن يسابقوا الآخرين فى الخيرات كما أوصاهم القرآن الكريم بذلك فعليهم تفعيل هذا العنصر الغائب دون إغلاق الأبواب أمام الاستفادة مما لدى الآخرين .

ومن الأمور البديهية أن الحضارة لا تقوم إلا بالعلم ، وإذا كان العلم فى الإسلام يعد فريضة على كل مسلم ومسلمة – كما جاء فى الحديث النبوى الشريف [1] ـ . فإن الحضارة فى الإسلام تأخذ حكم العلم فتكون هى أيضاً فريضة ، لأن الطلب الإلهى بإعمار الأرض لن يتحقق إلا بالعلم . وقد فتح القرآن الكريم باب البحث العلمى أمام الجميع على مصراعيه ولم يضع حدوداً ولا سدوداً أمامهم فى هذا الصدد ، ويؤكد القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

وهذا يعنى أن السموات والأرض وما بينهما مجال للبحث والدراسة . وختام الآية المشار إليها فى غاية الأهمية لأنه يشير إلى أن أبواب البحث العلمى لن تُفتح إلا ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : لهؤلاء الذين يستخدمون

١ـ أخرجه ابن ماجه فى سننه (حديث ٢٢٠) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه بلفظ "طلب العلم فريضة على كل مسلم" .

عقولهم ويجندون إمكاناتهم الفكرية للبحث والدراسة بصرف النظر عن معتقداتهم وأجناسهم ولغاتهم . والتفكير يعد من القيم الحضارية الإسلامية التى أكد عليها القرآن الكريم فى كثير من آياته لأنه الوظيفة الأساسية للعقل الإنسانى الذى يُعد أجلّ نعمة أنعم الله بها على الإنسان .

والإنسان – الذى هو خليفة الله فى الأرض – هو صانع الحضارة . ومن هنا كان تكريم الله للإنسان وتمييزه بالعقل ، وتزويده بالعلم الذى به يستطيع أن يقوم بمهمة إعمار الكون ، وهذا يعنى أن عليه مسئولية حضارية . وهذه المسئولية الحضارية ذات أبعاد مختلفة وجوانب متعددة ، إذ تعد بمثابة دائرة مركزها الإنسان ذاته ومحيطها كل ما يحيط بالإنسان من كائنات حية وغير حية ، الأمر الذى يبيِّن لنا مدى الشمول الذى تدور فيه هذه المسئولية الحضارية .

وقد كان مبدأ الاجتهاد فى الإسلام من المبادئ التى فتحت الباب أمام العقل ليصول ويجول فى مجال استنباط الأحكام الشرعية ، وهو الآلية التى أقرها الإسلام للتجديد المتواصل فى الحياة الإسلامية . وإذا كان الإسلام قد أجاز للعقل هذا الحق فى مجال الأحكام الشرعية ، فمن باب أولى يكون ذلك أمراً حتمياً فى مجال الأمور الدنيوية .

والنبى ﷺ نفسه هو القائل : **" أنتم أعلم بأمور دنياكم "** [1] والاجتهاد فى حقيقته دعوة إلى الإبداع فى كل مجالات العلوم والفنون

١ـ أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٤٣٥٨) من حديث أنس بن مالك أن النبى ﷺ مرّ بقوم يلقحون فقال : لو لم تفعلوا لصلح . قال : فخرج شيصاً فمرّ بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال " أنتم أعلم بأمر دنياكم " .

والصنائع ، ومن هنا وصفه المفكر الإسلامى الراحل محمد إقبال بأنه مبدأ الحركة فى الإسلام .

ويمكن القول بناء على كل ما سبق : إن الحضارة فى التصور الإسلامى تعنى تحقيق المشيئة الإلهية فى عمارة الأرض مادياً ومعنوياً ، وبذلك يحقق الإنسان ذاته بوصفه خليفة لله فى الأرض ، وبذلك أيضاً يكون الإنسان فى صلة مستمرة بالله خالق الكون ، وهذه الصلة كفيلة بأن تصحح له دائماً مساره على الأرض حتى لا يضل الطريق .

وفى ختام حديثنا نود أن نؤكد مرة أخرى أن المسلمين فى عالم اليوم فى مفترق طرق . والعولمة التى تجتاح العالم اليوم لن تعبأ كثيراً بالمستضعفين . وعالم اليوم لا يحترم إلا الأقوياء ، والقوة ليست فى القوة المادية فقط . أو الوفرة فى الثروة ، وإنما القوة التى يحترمها عالم اليوم هى قوة العلم ، قوة الحضارة . وليس أمام المسلمين خيار آخر إلا خيار العلم والحضارة إذا أرادوا أن يكون لهم مكان فى خريطة العالم المتحضر .

ومن هنا نؤكد أن الحضارة اليوم بالنسبة للمسلمين قد أصبحت فرض عين على كل مسلم و مسلمة كما هو الحال بالنسبة للعلم . وهذا يعنى أنها لم تعد ترفاً وإنما أصبحت قضية مصير ، وعلى المسلمين أن يدركوا ذلك جيداً وإلا فإن الزمن سيتجاوزهم ويطوى صفحتهم . وهذا ما لا يرضاه عاقل لأمته .

نسأل الله أن يهدينا جميعاً إلى سبيل الرشاد ،،،